ورود سامة لصقر

أحمد زغلول الشيطى

رواية...

الطبعة 3

ميريت

ما وراء الطبعة الثالثة

الرجوع إلى المخطوطة

تأتي هذه الطبعة الثالثة بعد سبعة عشر عامًا من الطبعة الثانية الصادرة عام ١٩٩٣ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبعد نحو عشرين عامًا من إصدار الطبعة الأولى فبراير ١٩٩٠ كمادة ضمن مواد العدد ٥٤ من مجلة أدب ونقد، والتي شغلتْ من العدد نحو ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، شاملة الرسومات ما بين الفقرات، بما يساوي ٢٠٪ من مساحة المجلة البالغ عدد صفحاتها ١٤٤ صفحة، كما تأتي هذه الطبعة بعد أربعة وعشرين عامًا من انتهائي من المخطوطة الأصلية المكتوبة بخط اليد في يوليو ١٩٨٦.

و وفقًا للمعايير المتبعة في عالم النشر فإن "الطبعة" هي: إصدار النص في كتاب مستقل، بالرغم من ذلك، اعتبر النقاد ومؤرخو فن الرواية أن نشر رواية "ورود سامة لصقر" ضمن مواد مجلة أدب ونقد هو طبعة مستقلة.

صدرتْ دراسات عديدة عن الرواية معتمدة على طبعة المجلة، منها دراسة الدكتور سيد البحراوي "ورود سامة لصقر إبداع روائي جديد" بمجلة الهلال المصرية، عدد يونيو ١٩٩٠. وقد جاء بالهامش رقم ٢ من

الدراسة (نُشرتْ الرواية في العدد ٥٤ "يناير- فبراير" من مجلة أدب ونقد، القاهرة، على صفحات ٥٩-٨٨، وسترد أرقام الصفحات في متن الدراسة بين قوسين).

كما أصدرت مجلة أدب ونقد ملفاً نقديًا عن الرواية في طبعتها الأولى ضمن عدد سبتمبر ١٩٩٠، تحت عنوان "رؤيتان نقديتان حول رواية زغلول الشيطي، ورود سامة لصقر". وقدّم للملف رئيسة التحرير فريدة النقاش. تضمن الملف دراسة للناقد السوري خليل الخليل، ودراسة مطولة للدكتور صبري حافظ تحاشى فيها ذكر أرقام الصفحات؛ ذلك أن هذه الدراسة كُتبتْ سنة ١٩٨٧ أي قبل إصدار الرواية في أية طبعة اعتمادًا على المخطوطة وحدها، وقد سلمني دكتور صبري نسخة منها في بيته بالمنيل، وقد فوجئتُ أن الدكتور حمدي السكوت قد أدرج الرواية في طبعتها الأولى بأدب ونقد ضمن موسوعة الرواية العربية: ببليوجرافيا ومدخل نقدي ١٨٦٥-١٩٩٥ الصادرة سنة ٢٠٠٠ عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، هذا رغم إصدار الطبعة الثانية من الرواية سنة ١٩٩٣ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد أشار دكتور السكوت إلى عدد من الدراسات التي نُشرت بعد إصدار الرواية الأول وقبل طبعتها الثانية. وبالتالي - في حدود علمي - ربما تكون رواية "ورود سامة لصقر" هي الرواية العربية الوحيدة التي صدرتْ طبعتها الأولى في مجلة أدبية ضمن مواد أخرى متنوعة.

أغلب الظن، أن عوامل عديدة متشابكة تتعلق بتعقيدات اللحظة التاريخية وبالنص ذاته أسهمتْ في هذا المسلك النقدي المتسامح إزاء مفهوم "الطبعة"؛ فقد كانت الرواية المصرية تبحث آن ذاك عن مخرج ينقلها إلى

ما بعد رواية الستينيات التي يمثلها "إبراهيم أصلان، بهاء طاهر، محمد البساطي، صنع الله إبراهيم، علاء الديب، جمال الغيطاني، جميل عطية إبراهيم، وغيرهم" في ظل تحولات عالمية جذرية تمثلتْ في انهيار الاتحاد السوفيتي، وزعزعة اليقين إزاء الايدولوجيات الكبرى، والحكايات الكبرى.

أشار دكتور سيد البحراوى في دراسته بمجلة الهلال إلى أن الرواية كُتبت سنة ١٩٨٦، ولم تنشر إلا في العام ١٩٩٠؛ فقد كان الناشر الرئيسي في هذه الفترة هو الدولة ممثلة في الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكانت الرواية قد انتشرتْ كمخطوطة بين عدد من الكتّاب والنقاد قبل نشرها.

اقترح عليّ الروائي إبراهيم أصلان أن أنشر الرواية بسلسلة "مختارات فصول" رفيعة المستوى، وقت كان يرأس تحرير السلسلة الناقد الراحل سامي خشبة، وكان الروائي إبراهيم أصلان نائبًا لرئيس التحرير، بالفعل أدرجتْ الرواية ضمن خطة النشر بالسلسلة، وأُعلن عن ذلك ضمن القائمة التي تُنشر شهريًا في كل عدد جديد لمدة تقترب من العامين، وحين جاء الدور على الرواية لتنشر فوجئتُ بالروائي إبراهيم أصلان يقابلني على مقهى "زهرة البستان" في حضور الناقد إبراهيم فتحي، وعدد من المبدعين، يحضرني منهم – على ما أذكر – الشاعر محمد كشيك، وربما الروائي محمود الورداني. سلمني الأستاذ أصلان المخطوطة وقد وضِعتْ خطوط حمراء تحت بعض العبارات التي وردت بها، وقال لي: إن رئيس التحرير يطلب منى إزالة هذه العبارات حتى يمكن نشر العمل في السلسلة. ثم قال: إنه يظن أن هذه العبارات جزء من العمل وإلا ما كتبتها. رفضتُ إزالة العبارات، واستُبعِدتْ الرواية من

النشر ضمن سلسلة "مختارات فصول"، وكان أن عرضتْ مجلة أدب ونقد نشر الرواية كاملة دون أي حذف.

أذكر أن الناقد إبراهيم فتحي لم يكن قد قرأ المخطوطة، وكنت شغوفًا وقتها بأن يقرأها لأعرف رأي صاحب "المعمار الروائي عند نجيب محفوظ". بعد طول تردد على مقهى "فينكس" والجلوس مستمعًا إلى الأستاذ إبراهيم فتحي، بادرني في إحدى الظهيرات الشتوية برأيه في الرواية، أبدى ملاحظة بعد أن انتهى من إبداء الرأي، فحواها أن بعض الكلمات من نوع "الخراء" وغيرها يمكن أن تسبب مشاكل تحد من فرص نشر النص وانتشاره.

نشرتْ أدب ونقد النص كاملاً دون حذف، كنت محظوظًا؛ فقد حظيتْ الرواية بالقراء محبي الروايات، فضلا عن باقي جمهور المجلة المتنوع. بيد أن ظروف النشر في مجلة وضيق المساحة لم يسمحا بوجود المساحات البيضاء الثابتة بالمخطوطة، والتي يتاح ظهورها داخل الكتاب لا المجلة. مع التسليم و بورخيس أنه لا توجد نصوص مقدسة، لكن يظل للشكل الطباعي فاعليته في تحديد نوعية القراءة.

أثارت الناقدة فريدة النقاش في مقالاتها الصحفية بجريدة الأهالي أمرَ تقاعس الناشر الحكومي عن نشر الرواية، ضمن إثارتها لقضايا النشر وحرية التعبير. عرضتْ الناقدة اعتدال عثمان التي كانت تعمل آن ذاك في الهيئة المصرية العامة للكتاب نشر الرواية ضمن ما يُسمى بالنشر العام خارج السلاسل، وبعد مشاورات عديدة سلمتها نسخة من المخطوطة وقام بتصميم الغلاف الفنان التشكيلي جميل شفيق، وبالفعل صدر الكتاب سنة ١٩٩٣. فوجئتُ بإزالة عبارة من الفصل الأول ووضع نقاط بدلاً منها،

العبارة هي "القحبة بنت القحبة"، جرى الاعتقاد وقتها أن عمال المطبعة المتأثرين بتيارات الإسلام السياسي وموجات التدين الجديدة هم من أزالوا العبارة، إلى الآن لا أعرف من أزال العبارة، ولم أسأل سامي خشبه رحمة الله عليه لماذا وضع خطوطًا حمراء تحت عبارات بعينها من النص، على أنه طلب عملاً آخر للنشر في السلسلة عوضًا عن النص المرفوض، وبالفعل صدرت مجموعتي القصصية "شتاء داخلي" عن سلسلة مختارات فصول سنة ١٩٩١.

أعدتُ العبارة المحذوفة إلى الطبعة الثالثة، وحذوتُ حذو المخطوطة من ناحية الشكل الطباعي، وانحزتُ بصرامة إلى الاختيارات الإشكالية للمخطوطة فيما يتعلق باللغة و مجريات النحو والصرف، وبالتالي، آمل أن تقدم هذه الطبعة الرواية كما كتبتها وأنا في أوائل العشرينيات من عمري في بيتنا بدمياط.

أحمد زغلول الشيطي

القاهرة أكتوبر ٢٠١٠

موت صقر

٩ أغسطس ١٩٨٤

(١)

بالأمس، جلس أمام الورق، بيده القلم، كتب أن الحب مستحيل، وأن الأيدى الخشبية تحاصره. فى الصباح، فتحوا الباب، وجدوه أزرق وصلباً، ورغوة تسيل من فمه، وفوق صدره باقة ورود، انطبقت عليها يده، وتحت الأوراق، امتدت قامة صقر عبد الواحد.. نفس القامة التى جعلت جده لأبيه يقول ذات مرة متندراً: صقر يتعرش عليه بيت.

(٢)

فى الشوارع الضيقة ذات البلاط المتكسر. كانت عجلات الحنطور تطقطق، وكان «يحيى» يجلس إلى جوار الرجل الذى يذيع، يرشده إلى الطرق التى يتركز بها أقارب صقر.

كان الميكروفون فوق رأس يحيى، يخرج منه الصوت طويلاً مشروخاً ودعائياً.. البقاء لله.. فقيد الشباب، وكانت الوجوه تطل من جانبى الحنطور، تتساءل عمن مات، وكان الرجل يذيع أسماء أقارب صقر ومنهم.. حسن محمود عبد الواحد – جزمجى، شفيق عوض عبد الواحد –

نجار، مرزوق عوض عبد الواحد – موظف بهيئة النقل العام.. لواء شرطة متقاعد إبراهيم عمارة.. انقبض قلب يحيى، صرخ:

- لواء؟.. ما فيش فى عيلة صقر ولا حتى صول.
- يا سيدى.. حد هيدور ورانا.

(٣)

- أنا يحيى يا ناهد.
- أهلا يحيى.
- إزاى رأس البر؟
- كويسة.
- مبسوطة؟
- يعنى.
- والمجارى؟
- البحر مقرف.
- صقر مات.

انقطع الصوت وسط خرفشة وضجيج، ثم عاد متسائلاً:

- بتقول إيه يا يحيى.. صقر فين؟

وضع السماعة. بصق على الأرض، ومن فوقه كانت شمس أغسطس تصهر الإسفلت. مسح عرقه بمنديل ورقى، ووقف خلف السنترال يتبول. فكر فى ضيق أنه قد يشاع عن صقر الانتحار، وأن ذلك سيسبب مشاكل لأمه ولأخته، صعد إلى الحنطور وطلب من الرجل أن يكف عن الإذاعة.

(٤)

حاول يحيى أن يمنع أم صقر. شقت جلبابها وتمرغت فى التراب، وكانت تحية تبكى فى صمت، ثم تعود تردد.. أخويا.. يا خويا، فيما كان جسده مستنداً إلى الجدار، وكان الناس يتدافعون إلى الداخل فى كتل ضخمة، وكان الخارجون يرددون أن شعره بدأ يتساقط وكانت الرائحة بدأت تفوح، وكان يحيى بالخارج، لا يجرؤ على الدخول.. وقف إلى جوار الحائط، ينظر إلى النافذة المفتوحة، ومرآة الدولاب، والملابس الملقاة فوق الضلفة، وعلى الجدار المقابل كانت صورة صقر أيام الثانوية، يضع ذراعه فوق كتف يحيى، فى حين أن عينيه بعيدتان، لا تنظران إلى الكاميرا، وكان رغم ذلك لا يبتسم، ومن خلفهما كانت أشجار النخيل عالية، وسماء عديمة اللون.

(٥)

فى المقدمة، حمل يحيى ذراع النعش، وتقدم خلف الناس، فى الشارع الطويل، على جانبيه المقاهى، والناس يقفون فوق الرصيف، يرفعون أصابعهم، ويقرأون «الفاتحة»، شعر يحيى فى كتفه بتسلخ، أبدل مع قريب لصقر، وتخلف وراء النعش، ثم وراء المشيعين فى الموكب.. استدار وجرى إلى وسط المدينة، كان فى حاجة لأن يغلق باب الحجرة عليه ليبكى.

كانت المصابيح ساخنة. كانت ناهد جاءت. وقف يحيى أمامها. نظرت إليه متوسلة. كان الشيخ يقرأ سورة «الرحمن». كانت ترتدى طقماً أسود أحدث موديل، ضيقاً ومشقوقاً من أسفل، وكان برفانها يفوح على البعد، جذبها يحيى من ذراعها خلف الشادر، كان قلبه ارتج. لحظة فكر أن هذه البنت.. القحبة بنت القحبة، هى قاتلة صقر، وأنها ما جاءت إلا لتعرض فستانها على هؤلاء الغلابة لتنتزع من عيونهم المريضة الإعجاب.

ضرب العارضة الخشبية بقبضته وانفجر بالبكاء.. وحده خلف الشادر فى ظلام طويل ممتد.

يحيى خلف

١٠ أغسطس ١٩٨٤

(١)

قال صقر: إننا نبكى من الموت لأننا لم نحىَ كما ينبغى. أمه قالت لي: صقر مات لأن الدنيا لم تعجبه، راح لدنيا أخرى، وقالت إنه راح وأخذ سره معه. الآن، أتساءل: لماذا مات صقر؟ صقر لا يموت إلا إذا كان الموت هو الطريق الأوحد، لم يترك رسالة، ولا حتى كلمة، حتى العبث بأوراقه غير مفيد بالمرة، لأنه لو أراد أن يوضح لفعل ذلك بأعلى صوت. كنا معا آخر مرة، فى المقهى القديم بسوق الخضار، وضع فوق المنضدة رواية «صورة الفنان». قال إنه لا يدرى ماذا يفعل بحياته، كانت عيناه بعيدتين، تنظران إلى الظلام فى أبواب الوكالة العالية، كنا فى آخر أبريل، وكان لا يكف عن التدخين، قال إننا فقراء أكثر مما ينبغى، أخشى أن يشوهنى الفقر، وضع كفه فوق وجهه، صرخ بصوت مبحوح: صرت أكتب أشياء مزعجة.. هل أفسدتنى الكتب؟

قال إنه يحب النساء ويفشل معهن، وإنه لا يعرف أين سينتهى. طلبت قهوة، واشتريت علبتى سجائر. خرجنا نتجول فى شوارع السوق الخلفية، تلك الشوارع التى يحبها صقر فى أوقات يأسه.

كانت رائحة المجارى تفوح، وكان الهواء بطعم الخراء، خرجنا إلى النيل. كان بركة راكدة، مشينا بمحاذاة الرصيف، سألته عن ناهد، نظر إلى فى وجهى، كأنه فوجىء بسؤالى. قال إنـه لم يعـد يحـتفظ منهـا بغير سروال ملوث وقصتين من أظافر قـدمها، وإنـه سيحرقهما قريبـا، ضحك بعصبية وقال: فاجرة.

كنت أعرف أنه يكذب، وأنه يتصل بها من الـسنترال مـن آن لآخر. عزمت عليه أن نتعشى، قال إنه متعب، وصافحنى ومضى. سألت عنه فى بيتهم عدة مرات. كانت أخته «تِحية» تقول إنه فى مصر، وإنها لا تعرف متـى يعـود، ومـرة أخـرى قـابلتنى تحيـة فـى الـشارع، كانـت تحمـل خضراوات وخبزاً، قالت إن أمها تريد أن ترانى، قلت إننى سأمر عليهم فى المساء، وسألتها عن صقر. قالت إنه فى مصر من شهر، ولا تعرف عنـه شيئا، خمنت أن أم صقر تريد أن تـسألنى عنـه، خاصـة وأن الوقـت لـيس وقت جامعة ولا دراسة. قررت ألا أذهب، لأننى لا أعرف ماذا أقول لهـا، لأننى كنت بعيدا عن صقر فى الفترة الأخيرة. بـسبب مـسلكه مـع ناهـد، كنا اختلفنا.

قال: إنه حر فى تحديد متى ينهى هذه العلاقة.

قلت: إنك لا تحب غير البرجوازيات يا صقر.

قال: وماذا فى ذلك؟

قلت: لا يمكن أن يكون حبا.

قال: كل الأشياء تحسم بهذا.

وأشار بين فخذيه. لم أتكلم. صرخ فى وجهى ماذا تريد منى؟ لـست شيوعياً، ليتنى كنت شيوعياً، لم أستطع أن أكون غير حالم يقع فى حب

البرجوازيات. أمي ريفية فقيرة، أبي من حثالات المدن، لأن رجلاً عسكرياً حالماً أو مجنوناً حكم مصر، لم أصبح عربجياً أو نشالاً أو حتى صبي حلاق. تركنا الرجل نتشعلق في حبال الهواء ومات ماذا أفعل؟

من تحتنا كان الفراغ، والحبال كانت تتمزع، ماذا تريد؟ لست مثلك يا يحيى..

تذكرت هذيانه وفزعه، في ظلام حجرتنا بالقاهرة، وهو يصرخ مستنجداً في الليل أن أستيقظ.

كان يتشبث بملابسي، وبصوته المخنوق يصرخ، أن أحدهم قدم له زهوراً سامة، وكل مرة في كابوسه الأبدي يأتي الرجل، ذلك الذي رآه في الشارع الجانبي على النيل، بعد ذبحه، وجهه قناع من خزف أصفر، وعيناه بلورتان زجاجيتان، في يده باقة الورود السامة.

قال: كان يتقدم ببطء. ظهري إلى الحائط والبحر رابض، وكيس الملح جبل فوق كتفي. يتقدم والصرخة مذبوحة في صدره، بيد من خشب يلقي الورود المتوحشة، يفزع صقر.. لا.. لا.. هناك في زمنه الموغل، بعد النوم على الأرصفة والتشرد، يوم التقى بها أمام البحر، قال: جزَّت رقبتي. قلت: كنت في كابوس. قال: كان القمر يصعد نحو سماء صافية، يصعد فيما فوق الملح. سألته: أكان الوقت قبل خروج الفقراء إلى شوارع القاهرة، يتظاهرون ويكسرون، بعد الإعلان عن زيادة أسعار الخبز، قال: كنت مفرداً أمام صدرها والبحر، في نور حلمي، عندما سقطت رأسي وعيناي تجمدتا.

(٢)

أفقت، لم أكن نائماً. موت صقر جعلنى أنام وكأننى مغمى على، ربما سيمر وقت طويل قبل أن أصدق أن هذه الزوبعة النبيلة، رغم كل شيء، قد اندثرت وذهبت فى ظلام نهائى. طلبت من أمى أن تعمل لى كوب شاى، وضعت رأسى تحت الماء. كان الماء ينزل من شعرى محملاً بالتراب والعرق، شعرت بكتفى تؤلمنى، شربت كوب الشاى، وخرجت. اشتريت الجريدة، وأوقفت حنطوراً ليوصلنى إلى بيت صقر. كان الصهد يصعد نحو عينى، ويجثم فوق صدرى، كنا يوم جمعة، كان مظهر الشوارع يوم عطلة، فتحت الجريدة مانشتات حمراء ثقيلة، وصورة راقصة الأريزونا أسفل الصفحة وفخذها مرفوعة لأعلى، كان صقر لا يقرأ الجرائد، كان وهو فى الابتدائية يجمعها ليعطيها لأبيه يبيع فيها العنب. كان يقول إن أباه يشترى أقفاص العنب بما يتصدق به عليه المصلون فى جامع النصر، ليبيعها لنفس المصلين بأثمان مضاعفة، ويوم عاتبوه وقالوا: العنب فى السوق بعشرين وأنت تبيعه بخمسين يا أبو صقر.. أمسك بعنقود العنب بطريقة استعراضية من طرفه وقال: ولا يهمكم مش بايع، ويبدأ فى التهام عنقود وراء عنقود، حتى يأتى على الصناديق كلها.

قلت: حل غير موفق.

قال: كان أقرب مسكين بالنسبة لهم.

قلت: وأنت؟

قال: كان يأخذنى فى الصيف، إلى رأس البر، كان يحمل البضاعة فوق ذراعيه بينما ألعب مع تحية بين أقدام المصيفين. كان يضربنا.

قلت: الرفض يعطى الإنسان القدرة على التجاوز.

قال: شكراً للمواعظ والنصائح.. لا أريدها.

***

كان النهار جاثماً فى الشوارع، ووهج الشمس يلتمع فوق جلد الحصان الهزيل، كانت السيجارة ذات طعم خانق، ألقيتها إلى الإسفلت.. كان الرجل يفرقع بسوطه فوق ظهر الحصان، ويلعن غاضباً، طلبتُ منه أن ينحرف يساراً، شعرتُ بجسمى مفككاً وبأن الدنيا ضاقت والهواء يوشك أن ينفد، فتحتُ أزرار القميص. أغمضتُ عينىّ، كتب لى ذات مرة يقول: «أموت بالنهار وأستيقظ بالليل، ليلنا، نحن السائرون نياماً، فى شوارع مدن رمادية» كان الليل إذ يتسرب إلى قلبه، يولد من جديد، صقر آخر، صقر حالم ونبى. كنت معه، فى ليله الطويل، من طفولتنا المطلة على البحر والورش، إلى أرض حلمنا، حملنا حقيبة واحدة بملابسنا وكتب الشعر، لأن صقر لا يعرف إلا أن يكون شاعراً أو سلة مهملات، وأتينا إلى القاهرة. وقف صقر بقامته المديدة فوق بلاط الردهة الواسعة فى باب الحديد، أشار إلى صورة «جمال» المعلقة على الجدار.

قال دون أن ينظر إلىّ: «هذا الرجل قتلنى».

سألته: قتلك؟

قال: قتلنى ومع ذلك أحبه.. نحن شعب يعشق قاتليه، ذبحنا الرجل برحيله المتسرع.. ما كان ينبغى أن يرحل..

قلت: كان يجب أن يختفى، كان محتماً عليه لو عاش أن يسير فى سكة هبوط.

صرخ: طظ فى التاريخ.

كنا معاً، وسط شعوب القاهرة. قال صقر «ضع يدك فى يدى». خاف أن يتوه أحدنا من الآخر. قال إن المصابيح ذات ضوء مظلم، وأن لا سماء ولا نجوم ولا أقمار ولا مطر ولا رجال ولا نساء ولا نهار ولا ليل ولا حب ولا أحلام.

كانت الشوارع تمتد إلى بعيد، تحت سماء من الدخان والغبار، وفوق الإسفلت المصقول كانت أحذيتنا تتخبط، إلى وجهة لا نعلمها. قال: «نحن صغار يا يحيى»، وسقط من فوق الرصيف. انكفأ على وجهه ومن فوقه كانت العمائر العالية تصعد كأشباح بدائية. بكى وضم ساقيه إلى صدره، أخفى وجهه عنى، وراح يعض ركبته ويضرب رأسه، رغم ذلك لم تسقط دمعة واحدة. وفى ليلة سألنى لماذا تتحول الشوارع النظيفة المضاءة كلما تقدمنا نحو الأمام إلى مزابل ومحاشر.. أرأيت الشوارع وهى تنقلب فوق رؤوس ساكنيها. ظل يردد سؤاله فى تجواله المحموم أربع سنوات فى شوارع القاهرة، رافضا أى إجابة. كان يرى النيون يلتمع فى الواجهات وعلى بعد بوصات تنتصب الخرائب والمعازل والمحاشر، كأن ذلك كان المعرفة النهائية، والدليل الدامغ على عبث الحياة وقذارتها.

(٣)

أخذنا حجرة بسرير واحد، فى لوكاندة بباب البحر، كانت الحجرة الوحيدة فوق السطح. كانت المرتبة دون ملاءة، وكان البق يزحف. لم نستطع دخول الحمام، كان طافحاً، وقف صقر أمام السور القصير، يطل من فوق إلى البيوت الدخانية، كان كمن ينظر إلى متاهة. كانت السماء سوداء مقفلة، رأيت وجهه مظلماً. عيناه حفرتان غائرتان، فيهما العذاب واستحالة الحب، فيهما الفوضى والنار. لم يتكلم، دخلت الحجرة. قلبت المرتبة. أخرجت ملابسنا وبعض الخبز والجبن. ناديته ليأكل. لم يجبنى خرجت أبحث عنه. لم أجده فى السطح ولا فى دورة المياه. نزلت بالبيجامة حافيا، سألت صاحب اللوكاندة. قال إنه خرج. صعدت مرة أخرى ارتديت ملابسى، ونزلت أبحث عنه. لم أكن جئت إلى القاهرة من قبل، ولا أعرف فيها أحدا، ولا أعرف كيف يمكننى البحث عن صقر وسط كل هؤلاء الناس. وكل هذه الشوارع المفتوحة أمامى، وسط السيارات والأضواء والروائح العفنة. نظرت فى وجوه المارة وركاب الأوتوبيسات والجالسين فى المقاهى. كان قلبى يعتصر. شعرت بالرغبة فى البكاء، لكن لا أحد هنا ليسمعنى أو يكلمنى، لا شىء غير الوحدة والرعب، أمام عمارات خرساء، وناس مشدودين إلى أهداف بعيدة مجهولة، بوجوههم المشوهة، وعيونهم المحدقة فى الفراغ.

رجعت إلى اللوكاندة منهكا. سألت عنه. قالوا إنه فوق. قفزت السلالم.. فتحت باب الحجرة، رأيته ممدداً فوق السرير، مرتخيا، ووجهه أصفر، كان نائماً، أيقظته. فتح عينيه.

- أين كنت؟
- سأموت يا يحيى.
- كلنا سنموت.
- ....
- لن تستمر بمخاوفك الأنثوية.
- عاد الرجل ومعه السم.
- أى سم.. أى أوهام يا صقر؟
- سأموت دون أن يدرى أحد.
- لو كنت رجلاً لتجعل لموتك معنى.
- ....
- أين كنت؟
- فى الكابوس.
- أين كنت يا صقر؟

لم يجبنى، رفض أن يجيبنى، حتى بعد مرور سنوات عديدة، إلى أن مات فى حجرته المطلة على الميدان، منطوياً على سره.

الآن. أسأل نفسى. هل عرفت صقر حقاً؟ وهل كان موته محتماً، هل سكت قلبه فجأة كما قال الطبيب. أشك أننى عرفت صقر، أو أن أحداً عرفه، فى عزلته المقيتة، وزمنه الدائرى. فى الحصار الذى أوقع نفسه فيه. فى هروبه المبكر إلى كهوفه الداخلية.. هل عرفت صقر؟

(٤)

توقف الحنطور فى بقعة ظل بشارع جانبى. نزل الرجل. وضع العلف أمام الحصان.. راح يربت على رقبته. قال: حيوان أخرس. قلت: ولا يهمك. باعد الحصان بين ساقيه الخلفيتين. سمعت صوت البول ينزل إلى الأرض الترابية. قلت للرجل: براحتك مش مستعجل. جلس إلى جوار الحائط يتطلع إلى الحصان وهو يأكل. أشعل سيجارة راح يمتصها فى نهم. مرت فى الشارع الرئيسى سيارة مسرعة، ثار التراب ناحيتنا. قال:

- النجارين فجروا، ماحدش عاجبهم.
- محدثين نعمة.
- خسروا البلد على الفقير.
- تعرف اليهودى اللى نزل دمياط أكل هو وحماره وتسلى بنكله؟
- آه.. بطيخة.. قشر البطيخة للحمار، وبطن البطيخة لليهودى، ويقزقز اللب..

الواد ابنى بيقول عايز فيديو يابا.. فتحت دماغه.. بورسعيد فسدت الدنيا.

أشعلت سيجارة، قلت كل شىء وله آخر.. أليس كذلك يا تحية؟

لا بد أنهم الآن يبكون صقر، فى صمت حزين. بالأمس رأيت عينى تحية. كانتا عينين غريبتين، جريحتين، فيهما أسى وغربة. كانت تنظر إلى ولا ترانى، تحولت تحية إلى عينين تائهتين تنزلقان على الوجوه والأشياء.

كان صقر بالنسبة لها أكبر وأجمل رجل، كانت إذا تكلم تجلس تتفرج عليه، حتى وهو يسخر من الدبلوم الذى لا تستطيع الحصول عليه، كانت تبتسم وتقول إنها تذاكر، ولكنها تنسى كل شىء أمام الورقة. كانت تحب صقر دون أن تفهمه، بحزنه وتعقيداته، بصمته الطويل، وضجره.

كنت أمر عليها فى محل الحلويات أسألها عن صقر، فتصر على إعطائى قطعة هريسة، كما لو كانت تهرب إلى رسالة غرام.

هبت نسمة هواء. فتحت صدرى. لا شيء. سماء صلبة تطوى المدينة تحتها. تكويها بالنار. إنها الآن على البحر، لا بد.. مفتوحة الفخذين، شبقة وفاجرة. بشاطئ رأس البر، تعرض جسمها أمام عيون الريفيين الجياع. مثلما عرضته على صقر، ذات يوم فى مراهقته المضطربة.

يوم ترك بيتهم دون أن يعلم أحد، وهرب فى قطار إلى القاهرة، وعندما وصل القطار إلى محطة المنصورة، أرعب صقر الضوء والزحمة والليل، شعر بصغر سنه فى الليل الشاسع. نزل فى المحطة، بدلاً من أن يعود إلى دمياط. عاد إلى رأس البر. ذلك الماخور الموسمى، كما أسماه فيما بعد، وهناك، قابلها.. «ناهد بدر» بعد يومين من النوم فى الجامع وفوق الرصيف. قال لى مرارا. إن الرجل ظهر له لأول مرة فى شارع على النيل. رجل ذو قناع من خزف، والبحر يزمجر، وعيناه زجاجيتان، والحائط خلفى، وجبل الملح يضغطنى، وبيده الخشبية يحمل باقة ورود غريبة. راح يقدمها له. بعد الذبح. بعد أن امتدت ذراع مشوية بالشمس. لا لتقبل.. ولا لتحتضن. امتدت ذراع بلون الرنجة. جزت رقبتى.

قلت:

- كنت تحلم.

- عيناى فى الثلج.
- هذه هى كوابيسك يا صقر.
- سقطت رأسي.. تحت العجلات والستائر. فى غابة اللحم المعطر.

حملته فوق ذراعي. وضعته على السرير. خلعت حذاءه. فتحت أزرار قميصه. عملت له كمادات بالثلج. ظل يهذى طوال الليل، فى حجرتنا بدار السلام.

(٥)

إذا سألنى أحد عن صقر، فى جملة واحدة، لقلت إنه أكثر من قابلتهم إحساساً بالخيانة، رغم تجربته القصيرة، وجنوحه الشعرى. ولقلت أيضا إنه لم ينتحر، صقر قتل فى أغسطس. دون أن يترك لى ورقة، بيد أن وقته كان ضيقاً، بينما قدماه تحملانه نحو قدره المحتوم.. نحو رجل أو مسخٍ، ذى قناع من خزف ويد خشبية وورود سامة، أقول إن قتلته جميعاً على قيد الحياة. زاولوا قتله على امتداد عمره الصغير، فى بيتهم، فى الورشة والجامع والشارع والجامعة. فى ذلك الزمن الشاسع المضطرب، الذى علق فيه مصير الإنسان - وإلى الآن - على أشياء تافهة سخيفة، ظل يؤكد لى أن لا تاريخ ولا عقل، وأن الجنون يحكم العالم. وأن الشر أساسى، قال إن أمه زفت إلى أبيه على عربية كارو، من قرية تبعد عشرة كيلومترات، وإنها بكت يومها بحرقة، لأن «الكوشة» تساقطت فى الطريق، حتى إنها عندما وصلت إلى البيت لم يكن قد بقى منها شىء.

قال إن فى نفس ذلك العصر كان الطلبة والعمال ينادون بالخبز والحرية، قال إن ما يروعه، أن تذهب كل هذه الدماء هباء، وأن هذا البكاء لا معنى له.

أقول: إنه لم ينتحر. كانت ناهد قالت له فى ندوة بالكلية أمام أكثر من عشرين طالباً وطالبة، بعد أن ألقى قصيدة:

- أنت إنسان محروم.. عواطفك مشوهة.

فى حين أن حبه كان عالياً وحميمياً، وكان يتوجه به إليها، قالت: أنت محروم. انشرخ وجهه وانطفأ. هاجمته كوابيسه وورده السامة، هاجمته الفلقة، والخشب فوق ذراعيه، هاجمه كل شيء فى دوامة واسعة بغيضة. ترك صقر القاعة وخرج منقبض الوجه. فى الليل بحجرتنا بدار السلام عاوده المسخ بقسوة وعنف. هاجمه كما لم يهاجمه. لم ننم ليلتها. جلست إلى جواره فى السرير. وضعت ذراعى على كتفه. قلت: نهرب؟

كان يفهمني. ابتسم. لأنه صاحب هذه الشفرة. منذ كنا أطفالاً فى الورش.

(٦)

أول مرة التقينا، كنا تحت البنك، في ذلك الصيف البعيد المطبوع في الذاكرة كأنه الأمس. وقت أن حلمنا بالهرب في السفن الشراعية المبحرة نحو بلاد بعيدة. حيث كل شيء جميل كالتصاوير. كنا علقنا في الفلقة، وارتمينا منهكَين تحت البنك، بينما المدقات تهد العالم فوق رؤوسنا. همس صقر في أذني «سأهرب». شفرة سحرية انخطف لها قلبي أشرت برأسي موافقاً. كان يبكي في صمت، وأقدامنا الحافية محمرة. همست له «متى؟» لأن الأسطى ناداه ليأتي له بغدائه من البيت. لم أعرف منه متى؟ كنا صممنا على الهرب دون أن يعرف أحد. كنا نقول دائماً، ونحن نحمل الخشب على أذرعنا، إننا سنهرب في الغد. ويأتي الغد ولا نهرب، بل نذهب إلى المدرسة نصف النهار الأول، وفي النصف الثاني نذهب إلى الورشة، ورشة الأسطى «رجب» وفي إجازة الصيف الطويلة نعمل في الورشة، وفي بيت الأسطى، وكذلك في يوم الجمعة لا نرتاح في بيوتنا، لأن زوجة الأسطى تحتاج إلى خضار وابنها يبكي دائما ولا يسكت إلا إذا حمله أحد، وصقر إذ يرى الأولاد الذين لا يعملون مثلنا، لا بعد الظهر ولا في إجازة الصيف، يلقي الخشب على الأرض ويزعق «ملعون أبو الشغل».

كان الأولاد يقولون للأستاذ في المدرسة، إننا نشتغل بعد الظهر، فيشتمنا الأستاذ ويقول: روحوا اشتغلوا وسيبوا التعليم لأصحابه، لأنني وصقر كنا خائبَيْن، وفي يوم، مات صقر من الضرب، علق في الفلقة، وكسر الأسطى رجب ثلاث خشبات زان فوق قدمي صقر، وأنا كنت

مرعوباً ومختفياً خلف ألواح الخشب، وصقر كان يصرخ وينادى أمه. كنت أخشى أن تقع عين الأسطى على. حاول الأسطوات منع الأسطى رجب من ضرب «صقر». لم يقدر عليه أحد. قال لهم: كان هيقتل ابنى. كنت أعرف أن صقر فعل ذلك، لأن زوجة الأسطى أرادت أن تزور الجبانة يوم الجمعة. قالت لصقر: شيل الولد على كتفك واسبقنى. قال لها صقر إنه تعبان. قالت إنها ستقول للأسطى رجب إنه صار ولداً شقياً لا يسمع الكلام. حمل صقر الولد على كتفيهْ وخرج إلى الشارع. رأى الأولاد يطيِّرون طائراتهم. عندما شاهدوا صقر، صرخوا فى صوت واحد: يا مره.. يا مره. اغتاظ صقر فألقى الولد على الأرض وجرى خلفهم ليؤدبهم. قال إنه كان يصطاد طائراتهم بطائرته. أرادوا أن ينتقموا منه لذلك. سألته: رجليك سخنة؟ لم يرد على لأنه كان يبكى. قال لنا الأسطى أن نحضر الخشب من الماكينة. مشى صقر على أطراف أصابعه لأن قدميه متورمتان، وإذ خرجنا إلى الشوارع فى الهواء البارد، لم يكلمنى صقر، وانطلق يجرى فى الأزقة والحوارى، لم أره بعد ذلك لمدة طويلة. سألنى الأسطى غاضبا: صقر فين؟

قلت وقلبى يكاد يقفز من الفرح: صقر هرب.

(٧)

كانت الورش أغلقت، كذلك المدارس، كانت أمى غريبة رأيتها تغسل الأوانى، ودموعها تسيل فوق خديها، حزنتُ وكدت أبكى.. قال لى صقر إن أمه قالت إن ابنه سيكون رئيساً بدلا منه، وكنا نمشى فى الشوارع الخالية من الناس. لا نعرف ماذا نفعل لأن كل الدكاكين أغلقت والناس ذهبوا إلى الأماكن البعيدة. قال صقر. نطلع البحر. لأن الكبار، كلما حدث شىء هام طلعوا على البحر. يمشون على الكورنيش وأمام المحافظة والاتحاد الاشتراكى. سألنى صقر كيف مات؟ والحقيقة، كنا لا نعرف كيف مات؟ لأننا ظننا أن كل الناس تموت إلا «جمال». مشينا فى الشوارع البعيدة. كان الناس كثيرين هنا. كانوا يصرخون ويبكون، وقفنا نرقبهم، بينما نبكى دون أن ندرى، لأن الصوت كان غريبا، إذ يقولون يا ناصر يا حبيب الملايين، ويبكون فى نفس الوقت.

كان صوتهم يخرج وسط بكائهم، خلف النعش الكبير المغطى بالعلم، والصورة الكبيرة العالية المثبتة على مقدمة النعش، وعليها شريط أسود، تحته جمال يضحك كأنه لم يمت. أمسك صقر بيدى. تهنا فى الزحمة. رحنا نصرخ مثل الناس. قال صقر إن جمال نائم داخل النعش. كنا نريد أن نراه. لكن الناس كانوا يتقدمون ناحية الكوبرى، ليصلوا إلى الجبانة. قال لنا رجل كبير إنه ليس بالنعش، إنما هو عند الله. سأله صقر، لماذا هو عند الله؟ قال الرجل الكبير وهو يمسح دموعه، احتاجه فأخذه.

تعبت أقدامنا ولم نرد الرجوع. تقدم موكب الناس إلى بحر النيل، كان الجامع الكبير من خلفنا، ومئذنته العالية يطلع منها صوت الأذان لرجل لا يستطيع أن يؤذن من شدة البكاء، وكان النعش ينزل إلى منحدر البحر وكنا خلفه، نتدافع لنسبق بعضنا، لأن النعش طفا فوق سطح الماء الهادىء، والناس هبطوا وراءه. صامتون لا ينظر أحدهم إلى الآخر. رأينا البحر يزدحم بالرؤوس. كلما مر الوقت اشتد الزحام. حتى لم يعد مكان لبقية الصفوف. كان كل الناس تضيع آثارهم تحت الماء، في حين ظل النعش طافيا فوق السطح.

لم يعد أحد في الشوارع. صمت المؤذن. قلت لصقر: هل مات كل الناس؟ هز رأسه. قال: لم يعد أحد سوانا. نظر مرة أخيرة إلى الصورة. كان يضحك فوق نعشه. رجعنا في الشوارع التي أتينا منها، وكان صقر خائفا. لم نرَ أي أحد، حتى ظننا أن أهلنا غرقوا أيضاً. جرينا نحو بيوتنا. إذ الليل بدأ يهبط.

(٨)

كأنني أتجول في هذه المدينة لأول مرة. من باب الحنطور، أرى الشوارع بيضاء صامتة، فيها موت وغربة، وعدد قليل من صبية الورش، يلعبون القمار فوق الرصيف، وبعض النساء آتيات من ناحية سوق الجمعة، حاملات سلعهن الفقيرة، كان الجو مشبعاً بالموت، بطعم النهاية، أيضاً كرباجٍ هذا الرجل يفرقع في الهواء، كان لا جدوى منه، كان محزناً وسخيفاً، وزائداً بصورة لا تغتفر. أشعلت سيجارة، ونظرت في الجريدة. صدمتني المانشتات الحمراء، وأفخاذ الراقصة ورشوة الملايين الخمسة. ألقيت الجريدة فوق المقعد الأمامي. كان أخي رجع مبتور الساق، كان رجع مبتوراً من الحرب، في حين أنهم كانوا باعوا كل السيقان المبتورة، والأذرع والعيون والأحلام.

كنا أطفالاً، وكان «فتحي» بطلاً في الحيٍ. قال إنهم سيوظفونه عاملاً في مرحاض، وانكفأ في صدر أمي، مبتوراً، وأجهش بالبكاء، ضرب قبضته في الزجاج. قال: عامل في مرحاض. أشعل النار في الكتب والمجلات. أشعل النار في صوره مع خطيبته. أخي فتحي كان نجاراً عظيماً، وكان جميلا، كان أعظم الناس، أجمل الناس. اتكأ على ساق خشبية، في الليل البعيد، وراح إلى المستشفى الحكومي. رفض فتحي أن يموت في بيتنا. قال لي: إن العبور يحتاج إلى عبور آخر. قال: اسمع يا يحيى. قلت: نعم. قال: العبور ناقص. قال: يحتاج إلى عبور آخر. أمسك يدي.. قال: في عينيك أرى طفولتي. قال: انتظر. سقطت يده من يدي.

قال انتظر، مبتوراً، وعاملاً في مرحاض وبطلاً. أجهش بالبكاء. قال انتظر.. قال: آخر. قال: آخر. ألقيتُ الجريدة بالخمسة ملايين، ثمن فتحي وصقر، ثمن الدم المسفوح في الرمال، والشيخوخة المبكرة، ثمن البلهارسيا. فرقع السوط في الهواء قلت للرجل: خلف السجل.. بدا أنه لم يسمعني. كررت: خلف السجل. قال غاضبا: عرفنا يا أستاذ.

كانت ورش الموبيليا مغلقة، ونفاياتها ملقاة في الشوارع. كذلك كانت المعارض مغلقة، وبالأمس، بالأمس فقط، انتهى صقر. مات. فقط مات، هكذا ببساطة، كابتلاع حبة منوّم. بقيت عدة أشياء أخرى بسيطة ستنجز على أكمل وجه، بعدها يغلق ملف موت صقر إلى الأبد.

انعطف الحنطور ناحية شارع العروبة، في نهايته مأتم صغير، في طابق أرضي، ومن المدخل، في بئر السلم فأر ميت، ورائحة عفنة، بالداخل كان شاب مات بالأمس. أغرقوه بالكولونيا.. رائحة الموت لا تطاق. قال: يضعون الكولونيا للموتى ليخفوا رائحة الموت، فلماذا نضعها نحن الأحياء؟ قلت: ماذا ترى؟ قال: لأننا نموت ببطء.

ضحك ضحكة حزينة. قال: لن أحزن يوم أموت، رغم أنني لم أعش كما ينبغي. سيكون هناك شيء باق. عزاء أخير «نور الله». إنني إذ أموت، أتوحد بهذا النور العالي المنبعث منٍ وجه الله. لم يكن صقر تكلم هكذا من قبل، كان يهزأ، ويرى أن المآذن ليست إلا خوازيق للمصلين. قال ذلك لناهد صرخت:

- كوكتيل جنون يا صقر.

عزمته يومها في جروبي. قال إنها دفعت عشرين جنيهاً مرة واحدة، وسألني: كم يقبض مستشار؟ قلت: مستشار وتاجر سيارات.

قال: حقا.

أشعل سيجارة، ونادى صبيٍ المقهى. طلب قهوة قال: اسمع يا يحيى.. هذه البنت تريد شيئاً طويلاً ذا مقدمة مدببة.

اندلق فنجان القهوة فوق ملابسى. أمسكت قلبى، شعرت بكل عضلات جسمى تتقلص من الضحك.

- و من أدراك؟

- لمحت لى.

فى اليوم التالى طلبت منها أن تبتعد عن صقر. قلت: إنه مريض، ولا يحتمل مأساة فوق مآسيه. تكفيه الميلودراما التى يعيشها ليل نهار. قلت: إنه فقير وإن العلاقة بينهما ليست سوية، وإن عليها أن تسأل نفسها إلى أين سينتهى هذا كله. قالت: انتهيت. قلت: نعم. قذفت كوب الماء فى وجهى. قالت: أنت سافل، وبالأمس حرصَتْ على المجىء بثوب أسود، ضيق، أنيق ومشقوق، ولحمها الأبيض الثرى مضغوط داخله، جسم فاجر، أمام وجه تحية الحزين، أجهشت بالبكاء، خلف الشادر. كانت الدموع تصعد من أعماق سحيقة، تصعد، أمام وجه شفاف مكسور، وجه تحية، كان كثيراً على النفس أن ترى تحية بعينيها المجروحتين وقلبها الصغير، ذلك الوجه الخزفى وجه ناهد بدر، ذلك الوجه الذى عذب صقر فى متاهة، وقتله مراراً.. بورود سامة.

(٩)

توقف الحنطور أمام بيت صقر، نزلت، استدار الحنطور، أثار غباراً. وقفت فوق الرصيف، أتطلع إلى النوافذ المغلقة. رائحة الصمت وشمس أغسطس، وسط سماء معدنية، شعرت بحلقى جافاً، وصداعاً خفيفاً فى جانب رأسى، مشيت فى الشارع الضيق الظليل. كانت قطتان تتنازعان جسم فأر ميت، فى البيت المقابل كانت امرأة تنشر ملابس مبهرجة الألوان. كان الظل يسقط فوق وجهى. كان المدخل مظلماً رطباً، وكان يمكننى سماع أصوات قليلة خافتة من المدخل.

كان صقر دخل بيتنا. رأته أمى. سألته: مالك ؟. قال: لا شىء. قالت لى أمى فى المساء. وجه صقر وجه موت. ضحكت. لم أفهم. وقتها ما كان يمكننى أن أفهم.

كأن الموت كان يشع من وجه صقر قبل موته بزمن.. دون أن يدرى أنه يهبط إليه.

كان الباب مفتوحاً، والنساء يرتدين ملابس سوداء فضفاضة. كن جالسات فوق الحصير صامتات، وكانت وجوههن بيضاء، وكانت تثنيات وجوههن حزينة، بلون المآتم والجنازات. كانت أم صقر بينهن، ذاهلة وخلفها فوق الجدار، صورة صقر معلقة، كان ينظر إلى فراغ لا نهائى. رأتنى تحية، كأنما عرضاً. وقَفَتْ كالمنومة.. قالت: «يحيى يا ماما». قامت

أم صقر، صافحتنى وقبلتنى بشفتين لزجتين، وربتت على ظهرى. قالت: أخوك مات يا يحيى.

انفجرت العجائز بالبكاء والعويل. قالت تحية: «تعال يا يحيى». أدخلتنى حجرة داخلية. سألتنى: أعملك قهوة ولا شاى؟ قلت: لا داعى. كانت عيناها مجهدتين، كان شعرها ملفوفاً فى إيشارب أسود. قالت: إن الرجال خرجوا ليصلوا الجمعة وإنهم سيرجعون ليجلسوا معى.. قلت: إننى جئت لأطمئن عما إذا كانوا يريدون شيئا، وإننى سأنصرف. قالت إنها تريدنى بعد يومين لأرتب معها أوراق صقر. قلت: إننى سأمر عليهم دائماً. أخفت عينيها فى المنديل، كانت دمعة منحدرة. قالت: لحظة. أعمل قهوة، وخرجت لتكمل بكاءها فى مكان آخر. شعرت بالحجرة واسعة حولى. وسقفها عالياً. كانت النوافذ مغلقة ورائحة قديمة راقدة فى الحيطان والأشياء.

كانت الملابس ملقاة فوق الكنبة المقابلة. من جانب الباب لمحت أم صقر تنظر فى حجرها وذراعاها ساكنتين. اندفع إلى فمى طعم حامض. شعرت بمعدتى تنقلب، وبأننى على وشك التقيؤ. خرجت إلى الصالة قلت سأرجع فى وقت آخر. شرعت وجوه النساء كلهن إلى. رأيت تحية تحمل القهوة وتنظر إلىّ متوسلة، سمعت كلاماً لم أفهمه، وشفتا تحية تنادياني، قلت: فى وقت آخر.

كانت عينا تحية فى عينى، لمحت صقر.. يجرى فى الريح.. مفتوح الصدر والذراعين، يصرخ بأعلى صوت.. يحيى.. يحيى.. يحيى..

شعرت بصقر مات.. لقد مات حقاً، وشعرت أنه لا يوجد سبب واحد على ظهر هذه الأرض يدعونى لأن أسَلِّمَ بموته.

استندت على جدار البيت. تحت الظل القديم، والسماء العالية.. أشعلت السيجارة الأخيرة فى جيبى.

قلتُ: انتهى. قالت: نعم. حملتُ الحقيبة. وقفتُ أمام شباك الدرجة الثالثة. دخلت المحطة. قالت: نعم. لوت شفتها السفلى. رفعت شعرها. قالت: نعم. امتد الحديد فوقه العجلات. الصدأ والغبار. الدرجة الثالثة. فى يدى الحقيبة وتذكرة سفر. كانت نار تندلع. خرجتُ إلى الشوارع. من زهامة العرق والزحمة. خرجتُ منها. قالت: نعم. وأسنانها تلتمع فى ابتسامة لزجة. سوتيان وسروال ومطواة قرن غزال فى الحقيبة. الدم والليل والحديد والنار. قلت: سأرحل. كانت خلف المنضدة. وجهها متموج. عيناها شعلتان خلف المنضدة جميلة وفاجرة. خرجت من باب البار. عيناها فوق ظهرى. تخترقان ظهرى قلت: تذكرة دمياط. فى الجو الثقيل الضاغط. بين الجدران العتيقة. الأعمدة والرخام. باب المرحاض مكسور. عيناى كانتا هناك. بين فخذيها. أرى الغائط ساخنا. تتصاعد الأبخرة. قلت: أعطنى. قالت: اعقل يا صقر. كانت تمرغت وانفتحت. يسيل فى يدى سائل لزج. أعتصر. قالت: بابى مستشار يا صقر. سألتها، وقلبى يهبط كل السلالم الحلزونية: انتهى؟ رشفت من المصاصة. قالت: نعم. وقفتُ فى الطابور. تحت السقف الأسود. أمام المقاطف والجلابيب والعصى. قلتُ: تذكرة دمياط. ضغطتُ الجرس. انفتح الباب. سقط ضوء أصفر. فى رداء البيت. والنهدان يتطلعان. رائحة ليمون طازج. قالت:

مجنون. قلتُ: أريدك يا ناهد لا محالة.. قلت: قلبى انكسر. دفنتُ وجهى بين نهديها. عبثت أصابعها بشعرى. قلت: أحبك. قلت: خذينى. أمى قالت: إن الله يعطى البرد على قدر الغطاء وأعطاك يا صقر طولا وعرضا لا لزوم لهما. لأنك يا صقر. لست كبقية الأولاد. إذ جلست يومها أمام الوردة. أربعة أيام. والمطر يهطل. أمام الوردة. تنشق حمرتها من اخضرار البرعم. وكيف هى.. فقط. مكتفية وجميلة. مضيعة فى المدى. وقدماى انغرستا فى طين الأرض. أمام الوردة. حتى لم يبق منى غير الرقبة. رفعونى بأيديهم صارخين. لا ورود تتفتح فى الشتاء يا صقر. حملونى كالميت من أطرافى الأربعة. ألقونى فوق السرير العالى. أمى راحت تمزق ثيابها وتصرخ. نحن فقراء يا صقر.. ستقتلنى يا صقر. قلبى لحظتها انغرس فيه سكين. تدفق الدم على جانبيه. إذ رأيت أمى تتحول إلى دمعة كبيرة. تسيل فوق البلاط. وأنا حشرة تختفى فى شقوق بيتنا. قالت: لا أذكر أول مرة التقينا. قلت كنا فى الماخور الموسمى. امتدت ذراعك. جززت رقبتى بسكين. والدم اختلط بالملح. كانت ذراعاك بلون الرنجة. وصدرك كان مكشوفا. سألت وحلقى مسدود. انتهى كل شىء يا ناهد؟ قالت: نعم. ضربت الحديد بقبضتى. تحت السقف الزجاج، فوق الرصيف الممتد، كنت بين جموع الناس أجرى. حقيبتى فى يدى. بينهم بالجلابيب، والفؤوس والقشف والأسود والعيون المريضة والتذاكر والخوف، والطين والصفير والملاحظ والرعب تحت المساء الهابط. قلت: كان جسمك برائحة البحر. لمحت بشرتك ملوحة بالشمس. وأكياس الملح فوق كتفى. كنت هربت من بيتنا. نمت فوق الرصيف وفى الجامع وخلف العشش. حملت الحقيبة. باقى نصف ساعة على القيام. وصول ١٢,٥.

والمدينة المنسية أمام البحر. نائمة بين دكاكينها. نائمة فى دمها الراكد. قالت: نعم انتهى. انتهى من قبل أن نلتقى. قالت: أنت إنسان محروم.. عواطفك مشوهة. كانت عيونهم تحفر وجهى. فى القاعة الصغيرة وأنا تحت عيونهم. آثم ومدان إلى النهاية. بدائى ومجرم، كانت عيونهم تحرقنى. كانوا فوق. يشعون براءة. كأن وجهى أصابه البَرَص. فجأة. تحت عيونهم. محروم يا صقر. ويحيى هناك. صامت ومكسور. المعركة معركتى. لا يمكنه التدخل. ليته تكلم. كان ينظر إلى. تكلم. بوجهه الحزين. كنت دفنت وجهى بين نهديها. وأصابعها فى شعرى. وموسيقى موزارت من الأسطوانة. قلت أحبك. قال يحيى: ليس حبا يا صقر. حملتُ الحقيبة. سوتيان ومطواة وسروال. دم وليل وسفر. جلست أمامى فى «ريش» قلتُ: تركت كل شىء وأتيت. لم يعد معى ما أنفق منه. أتيت لنصفى كل الخلافات. أريدك معى دائماً. لا أعرف إن كان حباً؟ طلبت عصير برتقال. وضعت المصاصة بين شفتيها الثقيلتين. باللون الأحمر القاتم. وعيناها كانتا تنظران إلى هكذا. نظرة مكشوفة وعارية. قالت: أنت تريد شيئا آخر. قلت: ماذا. سقطت عيناها إلى أسفل. كانت تمتص، تحيط شفتاها بالمصاصة فى التذاذ وحلم. قلت: ماذا؟ ضحكت ضحكة ممطوطة.. دائرية. متوهة. قالت: هذا. سألت انتهى؟ قالت: لا أعرف أول مرة التقينا. قلت: فى رأس البر. كنت فى ثانوى. هربت من بيتنا. نمت فوق الرصيف وفى الجامع وخلف العشش.. هربت من الدكان. كان أسوأ شىء أن أقف بين الخشب والمسامير فى إجازة الصيف. وأمامى دائما المعلم رجب. قالت: نعم. كانت ذراعاها بلون الرنجة. كان صدرك مكشوفا. طازجا وجديدا. وكان البحر.. البحر يا صقر. الـ.. ب.. حـ.. ر.. ر.. ر..

انفتاح نوافذ صدرك على شلالات النسيم المعطر.. على رائحة النساء الهائجات.. المحفوفات بأسرار المشابك والسوتيانات الدبابيس والسراويل الحريرية، والقوارير الغامضة. فى عالمهن البعيد أمام البحر المغلق أبدا يا صقر فى فيلاتهن المضاءة بأنوار سحرية. فى شوارعهن الخرساء، على رصيفها الورود والسيارات ذات الستائر وألوان الطيف.. النساء يا صقر، عرقهن المالح الطعم وهضابهن الإسفنجية. غارقات فى الساتان. ولهيب الرغبة. ورجالهن الصلع ذوو البطون المدلاة فوق الأحزمة، لسن نساءك يا صقر. لسن نساءك.. وسيفك فى غمده لا محالة. لك الرمال والملح، ولهم جنة اللحم المعطر فى غرف النوم. فى المصايف المواخير. وأنت هارب من الأخشاب والمسامير. تخرج من الموج المتكسر على ساعدك. فى فمك الرمل.. بيدك الريح تحت سماء المتوسط الجافة العارية. محروقا فى قلبك وجلدك. فأنت أخيرا لست إلا صبى بقال تقضى فى المخازن أكثر مما تقضى أمام الفتارين. حيث أنت فى الرطوبة العفنة والشوارع الخلفية وحجرات النوم، تذوق لأول مرة فى عمرك. طعم أن يكون النيون فى الأمام. هناك. فى حين أنك فى الخلف. وجهك مظلم وروحك مشروخة. تعبئ أكياس الملح من الأجولة الكبيرة، لتحمل فى نهاية الليل حصتك إلى عالم الفتارين. لتنهى عمل اليوم. هربت من المسامير. سقطت فى الملح.. آخر الليل ترتمى منهكا بين الأجولة المنتصبة. معذبا بكونك لا شىء. وتنام أو يغمى عليك إلى الصباح. تستيقظ كفسيخة مجففة فى الملح والشمس. لسن نساءك. ليس بحرك يا صقر. وأمك الآن فى الشباك. عيونها نوافذ مظلمة. وقلبها منخطف وراء روائحك فى الملابس. فى حين أنك تعدو وراء الوهم. كنت هنا، أسفل المصباح المطفأ، على كتفى حصة الملح. وهى كانت هناك.

فى النور المنبعث من لا مكان، تائهة فى ثورة شعرها. حافية فوق رطوبة الرمل. ذراعاها مشويتان بالشمس. بلون الرنجة. لم يكن أحد غيرى. عيناها فوق صدرى. على وجهى. كأنها تسأل من أنا. وفى أى عصر التقينا، وفى أى ضوء تعانقنا، كأننا نتساءل فى الحلم، والليل الشفاف ونجومه البلورية فى متناول اليد. اسمى صقر.. صقر عبد.. الواحد. أحمل الملح.. لست من هنا.. من دمياط.. أمى اسمها فوزية.. هربت من ضيق الورش والخشب. أتيت لأرى البحر.. أغير حياتى.. كأننى كنت أبحث عنك. كنت مختفية خلف الستائر فى الفيلات النائمة على رصيف الزهور، ألم ترِ رجلا اسمه صقر فى حلمك. إننى صقر. من المدينة القريبة المطلة على البحر. أكتب الشعر، رأيتك تشترين عطوراً باريسية من المحل الذى أعمل به. نوقك رائع. يومها. رأيت ذراعاً مشوية بالشمس ترتفع. هى ذراعك. وبدلا من أن تعانق. برزت سكين فى قبضة اليد. وأنا مستسلم. حزَزْتِ النصل على رقبتى. انجزت، سقطت رأسى، عيناى تجمدتا، كعينىٍ سمكة فى الثلج، رأيت دمى المسفوح على الرمل. ورأسى فى الملحِ. بعيداً عن قامتى المديدة التى يتعرش عليها بيت، كنت منهكاً، وساقطاً تحت الإطارات الملونة بدمى، تحت السيارات النادرة. من عصور السوبر ماركت، والدولار الحاد النصل. كنت منسياً أمام البحر.. الوحش الرابض فى الظلام. وأنت اختفيت. تبخرت من العالم. سألت: انتهى. قلت: نعم. بحثت عنك، فى الشوارع والدروب والأزقة والوجوه، خلف الستائر والصخور والأمواج والظل والصمت. فى الحارات والعشش، خلف الصفيح والإسمنت. ضربتنى الشمس. دوخنى الليل. وقفت فى الظل أسأل نفسى. هل كان حلما؟.. ورأيته. أول مرة. فى الشارع المظلم على النيل.

كان كيس الملح تضخم فوق كتفي. صار جبلا. كنت أتساءل. تحت مصابيح مطفأة. رأيته آتيا والبحر خلفه. وجهه قناع من خزف أصفر. يداه خشبيتان. بينهما باقة ورود غريبة. ورود متوحشة. كان الجدار خلفي.. والبحر رابض. وكيس الملح يتضخم. امتدت يداه الخشبيتان. ناداني باسمي.. خذ ورودك يا صقر. كان جسمي يتداعى. ورائحة زنخة تفوح من يديه. قلت: لا. اقترب مني. ورود لك يا صقر لك وحدك. قلت: لا. كان الجدار صلبا. وكيس الملح جبلا فوق كتفي.. صرخت. لا.. لا.. ألقيت كيس الملح في وجهه. سمعت ضحكته. ورودك يا صقر. قلت: انتهى. قالت نعم.. من قبل أن نبدأ. حملت الحقيبة. مشيت فوق الرصيف. اندفعت مع جموع الناس إلى الدرجة الثالثة. وصول ١٢,٥ ليلا. ستكون أمي نامت. مغلقة على حزنها.. وتحية منتظرة في حجرتي.. ترتب في أوراقي. ترهف السمع.. لعل الخطوة القادمة تكون خطوتي.. تبتعد الخطوات على الإسفلت.. ولا أحد. انشق الباب سقط ضوء أصفر فوق وجهي كانت في رداء البيت. نهداها مفتوحان خلف الثوب الشفاف. قالت: من؟ قلت: صقر. قالت: مجنون. قلت: هل يوجد أحد؟ قالت سيرجعون بعد ساعة. قلت: لم أستطع أن أتحدث إليك وسط الطلبة.. أخذتني من يدى. قالت: مجنون يا صقر.. لكنى أحبك. لفت ذراعيها حول رقبتي. قالت: من يحبك يسر معك نحو كارثة محققة. قلت أحبك. انحنت على، وأنا في المقعد الواطىء. قبلتنى في عينى. قالت: طفل صعب. قلت: أريدك. كانت تمرغت، وكنت مرغت وجهي بين نهديها. قال يحيى: ليس حبا. أنت لا تحب غير البرجوازيات. يا صقر. انطلقت صفارة. رن جرس. ووجهي خلف الزجاج. بالدرجة الثالثة فوق رأسي الحقيبة. استسلمت للضرب

الضاغط. ضرب الحديد فى الحديد. انـزرع جسمى فـى المقعد مـع أجسام الناس. أخذتنى نوبة السفر. كان القطار مشتبكاً بجسمى بالليـل بالحديـد بالمسافرين بالأحلام بالهزائم. بالرعب بالأشياء. دوامـة واحـدة تنطلـق إلى نقطة مجهولة فى طريق مزين باللافتات. شبرا.. بنها.. قويسنا.. سألت وقلبى يهبط وحيداً. انتهى؟ قالت. نعم. لا يمكننا أن نلتقى يا صقر. قال جدى: صقر يتعرش عليه بيت. وخائب كالنساء. قالت أمى بعد موت أبى. سيبك من موضوع التعليم. شوفلك شغلانة.. تساعدنا على المعيشة. قال جدى: خائب كالنساء.. قالوا: تبول فى الإناء. وسأل عن أمى والأولاد ثم مات. فى نفس اللحظة التى دخلوا فيها بالغداء. والردهة النظيفة خافتة النور. خالية من أى أحد. لأن أحدا لا يأتى فى الظهيرة. كنت واقفا خلف الضلفة المواربة. جاءت الممرضة. قالت: ما فيش زيارة يا شاطر. جلست فوق السلم العالى. أمامى كانت الأشجار قصيرة ومقصوصة.. فى طابور طويل إلى الباب الحديدى. قالت أمى إنها ستشترى برتقالاً. لأن بابا محجوب عن كل شىء. والدكتور قال إن عنده صفراء. وسمح له بالبرتقال إلى جانب وجبة المستشفى. كانت أمى لا تكلم أبى قبل أن يمرض لأنه لا يعطيها أى نقود. وإذا كف عن الجلوس أمام الجامع. ذهب ليبيع الدبابيس والأمشاط للمصيفين فى رأس البر. كان يجعل أمى تبكى دائما. كان جدى يقول إن أبى مريض. ولا يقدر على العمل. فى ركن فيه ظل. كان تمثال وحيد تعبث تحته القطط. تمثال الرئيس. مددت أصبعى إلى أنفه الغليظ. ارتج قلبى من الضحك. كانت الأبلة مديحة تقول إن بابا جمال يكتب جوابات للأولاد الذين يكتبون له. قالت ماما: بابا عايز يشوفك. خلعت المريلة وارتديت الشورت الأزرق والقميص الأبيض، كان خالى عبد

الستار اشتراهما لى فى العيد.. وماما سرحت شعرى. قالت ماما لجدى أن ينتبه للبيت وتحية إلى أن ترجع. سألتها: متى سيرجع بابا؟.. قالت: لا أعرف. تركت يدى فى يد أمى التى سال العرق على رقبتها. جلست على السلم الرطب النظيف. تركت كيس البرتقال جوارها. قالت إنه لا يستحق شيئا. قالت تأكل برتقالة يا صقر؟ قلت لا. لأننى حزنت. كانت ماما متعبة. وبابا لا يحب أن يعمل، وإذا تكلمت ماما ضربها. رأيت العرق يسيل على خديها. كانت تمسح وجهها بمنديل.. ومع ذلك تعود الدموع تنزل من عينيها. قالت أمى: فضحنا وسط الناس.. قالت بكرة تبقى دكتور يا صقر. وصوتها لم يكن صوتها. تدحرجت برتقالة منها لبعيد قامت لتأتى بها. مسحت الممرضة دموعها بمنديل. لم تقل شيئا. أمى نظرت إليها ولم تتكلم. جرت فى الردهة المظلمة الطويلة. قال التومرجى.. لا حول ولا قوة إلا بالله. دفع أمى فى صدرها. انفجر كيس البرتقال. جرت حبات البرتقال على بلاط الردهة كأنها تتسابق. كان المرضى يطلون من الأبواب. وأمى محجوزة لا تستطيع الدخول. وامرأة لا أعرفها أخذتنى فى حضنها وقالت ما تزعلش يا حبيبى. وأمى لم أعد أراها لأنها اختفت فى الزحمة. والدكاترة يروحون ويجيئون فى الغرف والطرقات. سمعت أمى تصرخ. رأيت خالى عبد الستار خارجا من الحجرة التى فى آخر الطرقة. أخذنى من يدى ومشينا فى الحديقة تحت الشمس. دفنت وجهى فى صدرها. سألت: هل يمكن لهذه اللحظة أن تستمر؟. قالت: ماذا تريد؟ قلت: لا أعرف. تخللت أصابعها شعرى. سألتها: لماذا تفر كل الأشياء الجميلة من بين يدى؟ قالت: أنت طفل صعب يا صقر. جلست خلف المنضدة. طلبت عصير برتقال. وضعت المصاصة بين شفتيها.

قالت: جاءني عريس. قلت: مبروك. قالت: لا يمكنني الارتباط بك يا صقر. كنا داخل صندوق زجاجي. دخان السجائر يتصاعد. قلت: تركت كل شيء وجئت لنصفّي الخلافات. قالت: لن نلتقي. لتكن مخلصا لوضعك. سألتها: من؟ قالت: معيد وشركة سياحة. قلت: أحبك. وضعت المصاصة بين شفتيها. سألتها: انتهى كل شيء؟ قالت نعم. قال يحيى: حتى لو كنت شكسبير عصرك.. ستظل ابن عبد الواحد. حملت الحقيبة. بها سروال وسوتيان ومطواة قرن غزال. قالت أنت فيتشي. قلت: نعم. سآخذ روائحك معي أينما رحلت. قالت: مريض وقفت في طابور الدرجة الثالثة. باقي نصف الساعة. ١٢,٥ وصول. وجهي ينعكس في الزجاج مظلماً ومتعباً. توقف القطار في المحطة النائمة. حملت الحقيبة. سألتها للمرة الأخيرة وقلبي يدوسه المارة. انتهى كل شيء؟.. قالت: نعم.

تحية عبد الواحد

١١ أغسطس ١٩٨٤

صحوتُ من النوم ساعة الفجر. غسلتُ رأسي. أيقظتُ جدى ليصلى الفجر. كانت أمى صاحية، تجلس فى الصالة فوق الحصير. إلى جوار الراديو المفتوح على إذاعة القرآن. سألتنى. مش هتروحى المحل النهارده؟ كنت أعرف أنها ستسألنى. قلت: بعد التالت. كانت حجرة صقر مغلقة لم يمسسها أحد. فتحت الباب والنافذة ليتجدد الهواء. كانت كتبه وأوراقه مبعثرة. نادتنى أمى من الصالة. قالت: سيبى كل حاجة زى ما هيه. قلتُ إن الحجرة متسخة وفى حاجة للتنظيف. قال جدى: اصبرى شوية يا تحية. أغلقت النافذة وباب الحجرة. جلست فى الصالة جوار أمى. قالت: صقر ده مش أخوكى؟ قلت: صقر أخى.. صقر أخى. كانت الأقدام بدأت تخف فى الشوارع، وأنا جالسة فى حجرته، نظفتها عدة مرات، ورصصت الكتب بالطريقة التى يحبها. كان عندى شعور أنه سيرجع الليلة. فتحت النافذة. وقفت أنتظر. كان العساكر ينظرون إلى. وكذلك المارة، كانوا يضحكون ويقولون كلاما قبيحا. رأيته قادما من أول الشارع. حاملا الحقيبة. كان غاب فى مصر أكثر من شهر، وكان قال لى إنه ذاهب لناهد ليصفى خلافاته معها. اقترب من النافذة. كان وجهه أصفر ومتعبا وفى شعره تراب وملابسه متسخة. سألنى واقفة ليه يا تحية؟ قلت: ادخل. استدرت لأفتح الباب وقلبى يتقافز من الفرح. كان شعرى مغسولا

وملفوفا فى الإيشارب الذى أهداه لى. دخل حجرته. ألقى الحقيبة، استلقى فوق السرير بملابسه وحذائه.. تنهد.. آه.. قلت: مالك؟ قال: اطفى النور. قلت: والعشا؟ قالت أمي: صقر فين يا ولاد؟ قلت نايم. قالت أمي لسه نايم؟ كان جدى فى الصالة يشعل الجوزة، وهى تصرخ صقر وتصرخ. كانت الشنطة معلقة بكتفى. قال: آه قلت: مالك؟ قال اطفى النور. نظرت إلى أمى وهى شاردة. قالت: صقر فين؟ كنت ارتديت ملابسي، وحملت الشنطة، وتأهبت للخروج، قالت: تعالى نصحًى صقر. قلت: والعشا؟ قال: انت عملت عشا يا تحية. قلت: كان جاهز. نظر إلى بعينين فيهما تعب. كنا نجرى على شاطئ الجربى، وكان أبى يصرخ: يا ولاد الكلب، وكنا نجرى. ونتخبط فى أرجل الناس، وآخر الليل بعد أن ينتهى أبى من بيع الدبابيس والسجائر والحلوى. يأخذنا ونحن نائمان فى عربة أجرة إلى دمياط. قلت: مالك يا صقر. قال: انتهى. أشعلت الموقد. وضعت فنطاس الماء فوقه. فتحت الراديو على أغنية نجاة.. حمل الزهور إلى كيف أرده. وقفت بالباب أنظر إليه. قال: بحبك يا تحية. قلت: تتجوزني؟ ضحك. استلقى فوق السرير وضحك ضحكا عاليا رن كالأجراس. قال: أتجوزك انت؟ قلت: يعنى أرضى. جرى ورائى، والأرض مفتوحة لا تنتهى. وأبى يحمل البضاعة فوق ذراعيه. يصرخ: يا ولاد الكلب. انكفأت على الأرض. وقف صقر. انحنى فوقى. قال: مالك يا تحية؟ قلت ما فيش حاجة. أمسكه أبى من رقبته. ضربه بقبضته فى ظهره، وضربه بقدمه. سقطت البضاعة منه على الأرض. أمسكنا وراح يخبطنا فى بعضنا ويصرخ. راح أكل عيشى يا ولاد الحرام.. كله راح، وكان يدوس علب السجائر بقدميه. تجمع المصيفون حولنا. قال أحدهم:

حرام عليك يا راجل انت. صرخ فيه صقر: ما لكش دعوى يا ابن الكلب، وجرى ليبحث عن طوبة يقذف الرجل بها. انحنى أبى يجمع البضاعة، وأنا رحت أجمع اللبان والدبابيس والأمشاط. اقترب صقر من أبى، وكان الناس انصرفوا. قال: ما تزعلش. قلت: مالك يا صقر؟ قال: انتهى. قلت: عملت إيه مع ناهد؟ صمت فجأة. ووجهه تعقد، وبان فيه كسور وخطوط. تنهد وأخفى وجهه تحت المخدة. قالت نجاة: حمل الزهور إلى.. كيف أرده. قالت أمي: صقر فين يا ولاد؟ قلت: نائم. كنت ارتديت ملابسى. قالت أمي: لسه نايم؟ ـ كان جدى فى الصالة. أمام الموقد. يشعل الجوزة. قلت: أنا همشى. قامت أمي من مكانها قالت: تعالى نصحى صقر. فتحت الحجرة. كنت خلفها، وهى تنقذف بكل جسمها إلى الداخل، مرة واحدة، وتصرخ.. صقر، تصرخ صقر، صقر وتصرخ. قال: أبوها مستشار وتاجر سيارات وعشة فى رأس البر وعريس معيد ومقاول وسياحة وعضو فى الوطنى الديمقراطى، ونجم انفتاحى صاعد، وأنا صقر عبد الواحد، حتى لو كنت شكسبير عصرى وأنا لا شىء. قلت: طظ فى المستشار. رنت ضحكته فى الحجرة كالأجراس. قال: أتجوزك يا تحية؟ استلقى فوق السرير.. جلست أمامه فوق المقعد. شددت رجليه ناحيتى. خلعت حذاءه وجوربه. نظر فى عينى. قال بتحبيه. قلت: انت فايق يا صقر. شدنى من ذراعى. قال بتحبيه قلت: أيوه.. استريحت؟ سيب دراعى. قال: قوى. قلت: ما اعرفش. قال: هقوله. قلت بسرعة: لأ يا صقر لما آخد الدبلوم. قال يا عفريتة. قال: يحيى إنسان وصديق وفى، وكمان اتخرج واشتغل فى دمياط. مدرس إنجليزى ممتاز. حملت الجورب والحذاء خارج الحجرة. وضعت الطشت الألمونيوم فى وسط الحجرة. فككت أزرار قميصه. طلبت

منه أن يقعد تحت. خلع قميصه وجرى نحو البحر، نحو الموج العالى، وأنا كنت واقفة على الشاطىء. خائفة من أن يتوه منى، وكان أبى يجلس جوار العشة. يرتب البضاعة ناديت.. صقر.. صقر. لم يجب. جريت نحو البحر. خفت من الموج والزحمة. رجعت. جلست أنتظر. كانت الشمس مستديرة حمراء. كانت تنزل البحر. كنت أنتظر. والشمس تهبط. غاب صقر قلت لأبى صقر فى البحر. صرخ: ابن كلب. جرى فى الزحمة وأنا جالسة جوار البضاعة. أفتش فى زحمة الناس. ولا أراهما. غاب أبى، وغاب صقر، وأنا وحدى. تحت جدار العشة، والموج يعلو ويهبط. وضعت البضاعة فوق ركبتى. ناديت.. صقر.. صقر. قال: بتحبيه؟ ناديت. جاء ناس وناس وأنا أفتش بين أجسامهم. قالت: أخوك مات يا يحيى. قلت: القهوة. صرخت: مات. وأنا أبحث فى الليل الهابط. بين أجسام العراة. صرخت صقر، وصرخت. اقترب منى، ويده فى يدى. قال: انتهى. والموج يهبط، ينحسر. علبة سجاير يا شاطرة. باكو لبان. مشط كبريت. معاكى فكة. لسه بريزة. لأ كفاية. حملت البضاعة فوق رأسى. مشيت أفتش وسط الشماسى والمراجيح والجرادل. كان الأولاد يبنون بيوتا من رمل. يأتى الموج يأخذها. قالت أمى: صقر فين يا ولاد. قلت: أيوه.. استريحت؟. رأيتُ يحيى يهبط نحو السوق. ناديته. لم يسمعنى. قالت: أخوكى صحيح انتحر؟ قال: انتهى. كنت أتقدم نحو البحر، والبضاعة فوق رأسى. سجائر ولبان وحلوى. دبابيس معجون أسنان وأمشاط كبريت. ناديت والماء يرتفع إلى ركبتى. قال يحيى: دائما حزينة يا تحية، والموج يعلو، إلى صدرى إلى رقبتى، والليل يهبط فى الماء، فى وجوه الناس. فوق الحيطان والأعمدة والرمل.. يعلو ويعلو. تأخذنى الدوامات السفلية. صرخت: صقر.

أخذتنى الموجة فى فتحة مظلمة. أخذت البضاعة.. تناثرت الأشياء فى الماء. صرخت: صقر. قال: انتهى. قلت أنا همشى. قامت أمى من مكانها. كانت تكلم جدى عن الناس الذين كانت عندهم بالأمس. قالت: إنها عملت حلويات من كل صنف ولم يعطوها سوى خمسه جنيه. قلت: والعشا. قال: عملتى عشا يا تحية؟ قلت: كان جاهز. حملت فنطاس الماء الساخن إلى الحجرة. وضعت الطشت فى الوسط. جلس أمامي. وضعت الصابونة فوق رأسه وسكبت الماء الساخن. سال الماء من رأسه محملا بالصابون والتراب. نظفت الرغوة بيدى من وجهه. نظر فى عينى. سألنى: بتحبيه يا تحية؟ ضغطت رأسه لأسفل لأصب الماء. قلت: إنت فايق. قال: يحيى يعرف؟ قلت: ما اعرفش. قال: لازم يعرف. قلت: معقول يتجوزنى أنا يا صقر. أزاح يدى. رفع رأسه. ضرب قبضته فى الخشب. قال: أنت مجنونة. قال: أنت مجنونة يا تحية. بكى. سالت دموعه. خرج صوته باكياً غاضباً. بكى وقال: أنت أجمل البنات، وبكى. وكان جالساً. دموعه تنحدر، ووجهه ملطخ بالصابون والماء. رفع ذراعه. غطى وجهه بكفه. بأصابعه ودموعه تنزل. ثم لا يكف، وكان جسمه العالى قد تهاوى وصغر وراء الفنطاس. قال: يا مجنونة. قالت: حمل الزهور إلى.. كيف أرده. قذف الصابونة تجاه الراديو. أخطأته. قلت: انت فايق يا صقر؟. قال: أبوها مستشار، وتاجر سيارات وعشة فى رأس البر وعريس معيد وسياحة على الآخر وعضو فى الوطنى الديمقراطى. قال: كل هذا لا يهم. أخذت ما تريده. أخذت أهم شىء بالنسبة لها. قال: أخبارك إيه فى المحل؟ قلت: الشغل من ٨: ٢ أبيع مشبك، وأبيع مشبك، وأرجع أبيع مشبك. قال: والمعلم؟ قلت: جيوبه انفجرت فاضطر إلى أن يتاجر فى

الفيديو وقمصان النوم واللبان. يدير شبكة تهريب من النساء على خط بورسعيد والحكومة كلها فى جيبه. قال: والدبلوم؟ قلت: ربنا يستر. قال: مش عارف مخك تخين لمين؟ ضربته فى رأسه. قلت كفاية واحد فالح. قال: أعترف أنى فالح. صببت فنطاس الماء كله فوق رأسه. نادتنى أمى من الصالة. قالت: سيبى كل حاجة زى ما هيه. قلت إن الحجرة متسخة وفى حاجة للتنظيف. قال جدى. اصبرى شوية يا تحية. قمت فتحت حجرتنا. رتبتها. حملت الملابس المتسخة. وضعتها فى الغسالة. قلت لأمى إننى سأغسل. لم ترد علىّ.. كانت تنظر فى صورة صقر مع يحيى المعلقة فوق الجدار. قلت إرحمى نفسك. مسحت دمعة بمنديلها. دخلت حجرة صقر وأغلقتها خلفها أوقفت الغسالة. سمعت أمى تتكلم بمفردها فى حجرة صقر. أشار لى جدى أن أدخل إليها. نظفت يدى. فتحت الباب. كانت تضع قميص صقر تحت أنفها. أجهشت بالبكاء. أخرجتها من الحجرة بعد أن خلعت القميص من يدها. طلبت منها أن تساعدنى فى الغسيل. قال جدى إنه سيصلى ويرجع. أعطيته القسط وطلبت منه أن يشترى لبنا بعد أن يصلى. قلت لها أن تخلع جلبابها لأغسله. دفعتنى فى صدرى. قالت: صقر ده مش أخوكى؟ قلت: ليه؟ قالت: اقفلى الغسالة. جلست فوق مقعد الحمام الواطىء.. قلت: صقر أخى.. صقر أخى. بكى، أخفى وجهه فى كفه قال: يا أجمل البنات.. رفع ذراعه القوية.. ذراع الرجل. فوق. غاضبا وفى عينيه نار. صفع أمى على وجهها.. فوق والنار تشتعل. صرخ. مش أمى ولا اعرفك. قلت: صقر. رفسنى برجله فى بطنى، صرخت وارتميت، جمع كل ما اشترته أمى من بورسعيد، قمصان نوم وكلاسين وتفاح وأرواب. وضع كل شىء فى كومة

واحدة وصب عليه الجاز. صرخت أمي مش حاجتنا يا ابن الحرام. قال: بتهربي؟ عملتي إيه مع العساكر في الجمرك؟ قالت: ارحم أمك يا صقر. ألقى عود كبريت مشتعل. ارتفعت النار إلى السقف. خرجت أمي إلى الشارع. تنادي الناس ليلحقوا المجنون. قالت إنها ما زالت تنفق عليه ومع ذلك يضربها، ويحرق البيت. خرج صقر وغاب شهورا عديدة. قال: انت مجنونة. وضع وجهه في كفه. قالت نجاة: حمل الزهور إلى كيف أرده؟.. قال أي ورود يا تحية.. أي ورود؟ قال: كأن الأشياء ليست حقيقية، وكأن الكائنات مسوخ. قال: كأن كل الورود سامة.. وكل الحب مستحيل. قلت: مالك يا صقر؟ قال يحيي رجل.. رجل حقيقي.. يتحرك وسط عالم حقيقي.. يتحرك مع مجاميع تؤمن به وتحبه. يدير المعارك في مجلات الحائط.. ينتمي لحزب، يشتم المباحث ويتهم الآخرين بالتهاون. قال: إنه رجل يا تحية، وأنا لا شيء. رجل يؤمن بأشياء ويريد تغيير العالم. وأنا؟ من أنا؟.. لا شيء. قال: مرة قرأت قصة، لا أذكرها، كان رجل يدخل عالما غريبا عليه، ويكتشف أن كل البيوت واجهات فقط. لا شيء خلفها غير صحراء وموت. قلت: مالك يا صقر؟ قال: يا أجمل البنات، وبكى. جلست فوق مقعد الحمام الواطيء.. قلت: صقر أخي.. أخي.. سألتني أمي: صقر فين؟ قلت: نايم. قالت: لسه نايم؟ كانت الشنطة معلقة بكتفي، وموعد العمل اقترب. قلت: أنا همشي: قالت: تعالى نصحى صقر. قال: اعملي شاي يا تحية. دخل هو ويحيى حجرته. سمعته يكلم يحيي: نحن فقراء يا يحيي. فقراء. تحية أختي تعمل في محل حلويات.. تخيل إلى وقت لم تكن تعرف كيف تعد جنيه فكة. قال يحيي: الفقر سلاح ذو حدين إما أن يشوه الناس أو أن يعلمهم القدرة على

المقاومة فى أنبل صورها. دخلت بالشاى، قدمته ليحيى. ثم صقر.. قال يحيى: إزيك يا تحية؟ عاملة إيه فى المدرسة؟ قلت: بنحاول. جلست فى المقعد المقابل. كان يحيى يرتدى قميصا خفيفا وحذاء من القماش، وكان ينظر إلى، كأنه يرانى لأول مرة. خرجت صففت شعرى وطرحته على ظهرى. أخذت صينية الكعك ودخلت قدمتها إلى يحيى. نظر إلى، ثم نظر إلى الصينية، ابتسم. قلت: شوف باعرف أعمل كحك ولا إيه؟ سألنى: بتحبيه، رفع يده. أخفى وجهه، ودموعه تنزل، وجسمه تهاوى، بكى. قال: يحيى يعرف؟ قال: انتِ مجنونة. وضعت الصينية أمام يحيى. ضحك صقر. قال يحيى: أرجح من النظرة الأولى أنه جميل. قال صقر: يلزمك نظارة. راح يحيى يقلب فى مجلة عليها صورة ياسر عرفات يحمل طفلا. ومن تحته عبارة.. ثورة حتى النصر. أشعل صقر سيجارة وراح يرتشف من كوب الشاى. قال يحيى: لا أحد يعرف لمصلحة من كل حمامات الدم هذه؟ قال صقر: تحية عايزة تعرف رأيك فى الكعك. قال يحيى كأنه لم يسمعه: رفاق الأمس فى النضال ضد إسرائيل والكتائب هم أعداء اليوم. قال صقر: هل يبدو غريبا؟ قال يحيى: كانت رفقة السلاح بين أمل والفلسطينيين على أرض طائفية ولذلك. باءت بالفشل. قال صقر: جان جينييه قال إن الفلسطينيين على حق لأنه يحبهم. قلت ليحيى: اشرب الشاى. قلت: والكعك. ضحك. نظر صقر فى عينى. سألنى: بتحبيه؟ قال: انتهى. قال يحيى: عاشت إيديك يا تحية. أخرجت الصينية. نظرت فى المرآة. استلقيت فوق السرير. نظرت مرة أخرى فى المرآة. دخلت حجرة صقر. جلست فى المقعد المقابل. أمام يحيى. كان صقر ينظر إلى. رأيت فى عينيه حزنا. صمت. قال يحيى: هل رأيت الذهول

على وجوه الناس والخيانة الصريحة تقدم لهم كبطولة. كان تمهيدا جيدا لنافورة الدم فى صابرا وشاتيلا وبقية المخيمات. قال صقر بعد أن استلقى على سريره: إننا نعيش عصرا كاملا من الخيانة. أو قل الوضاعة. قال يحيى: من يخون من؟ قال صقر بحدة: الناس فى هذه البلاد بحر عجيب، بحر من البشر، منفلت. يشيعون ناصر بالروح والدم ويستقبلون نيكسون كبطل ويموتون فى الحرب ويصفقون لكامب ديفيد ويكسرون القاهرة فى انتفاضة الجياع. لا تلمنى هكذا سماها الغرب. سألنى يحيى: إيه رأيك فى كلام صقر؟ قلت: كويس. ضحك وقال: أختك معك. نادتنى أمى، قالت: صقر فين؟ قال صقر: لم أعد أراهن على شىء. سألتنى فين؟ قال: رجل.. كل أشيائه حقيقية، وفى الكلية كان يفعل أشياء هامة.. هامة يا تحية، فى المعرض، وفيلم عن المذابح فى المخيمات يعرضه ويعلق عليه، والبنات البرجوازيات يصفقن له يا تحية. وأنا كنت فى الظل. فى النور الكاذب، فى الأشياء الوهمية والضجر. قلت مالك يا صقر.. قال: ألوك حزنا قديما. ألوك صمتا وموتا ولحظات تفر. قلت: مالك يا صقر. قال: انتهى. قلت: أنا همشى. قامت أمى من مكانها. قالت: تعالى نصحى صقر. فتحت الحجرة كنت خلفها، وهى تنقذف بكل جسمها وتصرخ.. صقر. سألته عملت إيه مع ناهد؟ نشف رأسه بالفوطة وراح ينظر فى المرآة. استدار غاضبا. قال: سيبى الشنطة. صمت لحظة قال: ما تزعليش يا تحية أنا تعبان شوية. أخرجت الطشت والفنطاس. نادانى صقر. قال. علاقتى بناهد انتهت. قال عايز أنام يومين. تمدد فوق السرير. سألنى: فين أمك؟ قلت: نائمة. سألتنى أمى: صقر فين؟ كنت خلفها. فتحت باب الحجرة بهدوء أطلت برأسها. انقذف كل جسمها فجأة داخل الحجرة،

وأنا كنت فى الخلف. أحمل حقيبتى، وخلفى كان جدى جالسا فى الصالة. صرخت أمى. صقر. كنت لم أر شيئا. كان الجو ثقيلا والهواء مكتوما داخل الشقة. صرخت.. صقر.. وصرخت صقر وصرخت وأنا كنت واقفة أمامه. قلت: اخلع قميصك.. وضعت الطشت فى الوسط. كان الماء ساخنا، خلع قميصه وجرى نحو البحر، نحو الموج العالى، والشمس مستديرة وحمراء، تنزل فى الماء البعيد تقدمت خطوة.. بين الجدران الأربعة.. نحو صقر الممدد.. بقامته الفارعة، كأنه يبتسم.. طويلا.. مفتوح الصدر.. صلب كالصخرة.. صقر أخى، أزرق وفى قبضته باقة ورود.. باقة ورود فى يده.. وأنا فى الخلف تقدمت خطوة طويلة.. طويلة، نحو صقر أخى.

ناهـد بـدر

١٨ أغسطس ١٩٨٤

ارتديت ملابسي. وقفت أنتظر في الشرفة. ناديت أخي سامي. قال إنه يجهز العربة. سألتني أمي إلى أين؟ قلت بيت صقر. كأنني قلت بيت الموت. أعرف أنها تبغضه. لكن الموت منعها من الصراخ في وجهي. ناديت سامي. أخرج العربة من الجراج. توقف أمام باب العشة. قالت أمي وهي تكتم غضبها إن لا داعي لهذه الزيارة، وإن الزيارة الأولى تكفي. حملت الحقيبة. ونزلت الدرج بسرعة. فتح سامي باب العربة. ارتميت منهكة في الداخل. صدمتني رائحة الجلد ودخان السجائر. طلبت من سامي أن يقود بسرعة. كنت أشعر كما لو كانت جدران البيوت تضغط فوق صدري. سألني سامي إلى أين؟ قلت «بيت صقر» أوقف العربة ونظر إلى برهة. قال «مجنونة» وقاد السيارة نحو شارع النيل. فتحت زرار البلوزة العلوى. دخل الهواء إلى صدرى. تنفست. منذ جئنا رأس البر لم أنزل البحر. المجارى لا تطاق. قلت لسامي أن يعذرنى. قلت إننى أردت هذه الزيارة لتصفية مسألة بسيطة عالقة. عينا تحية كانتا فى عينى. عينان واسعتان، مفتوحتان. تنظران إلى. تعريانى. تتهمانى وأنا جالسة وسط النساء لابسات الأسود، كأنها تقول إننى قاتلة صقر وإننى أقتل القتيل وأمشى فى جنازته، حتى أم صقر. أفاقت من غيبوبتها ودققت فى ملامحى كما لو كانت تتساءل أين رأت هذا الوجه.. أين؟ شعرت بأربع

عيون تخترم جسمي. عيون هي عيون صقر، من كل الجهات مصوّبة نحوى. أول مرة أشعر بالموت. وأشعر أن صقر كان سائرا إليه، بأرجله القوية المشعرة، وصدره الصلب، بيديه الصخريتين اللتين تركتا حفرا في جسمي. كان الموت جاثما في هذا البيت الفقير المكتوم الأرضى، المترب ليل نهار، وعينا تحية تنهشان وجهي. أردت أن أفر من هذا الكابوس. كانت أجسام النساء، المتلاصقة تمنعني، وعيون تحية ترقبني. إنهم لا يعرفونه.. لا أحد يعرفه كما عرفته. صقر مجنون. طلب منى أن ينام بين فخذى ليلة بطولها. جرنى من شعرى فوق البلاط. طاردنى في كل مكان حتى التواليت وغرفة نومي. فضحني بقصائده في الجامعة. سرق ملابسى الداخلية ملوثة وعرضها على أصدقائه في المقاهى وكتب فيها شعرا. أراد صقر أن يقتلني لأنني لا أحبه. ما كنت أستطيع حب مجرم. قال إننى لست إلا نحلة شبقة تفتش عن أقوى الذكور. احتملته. طلبنى في التليفون بعد منتصف الليل قال إنه يريد رؤيتى فورا. صرخت لا يمكن وقفلت السكة في وجهه، من يومها أعلن الحرب على. ما كنت أتصور أن يتحول إلى مجرم سفاح. كان يعاقبنى على أخطاء وهمية. وكنت أحتمله. لسبب بسيط هو أن صقر تسلل إلى دمى. كانت حياتى لوحة من الزجاج الملون. ضرب صقر قبضته فيها تناثرت شظايا. قال إنه قابلنى أول مرة في رأس البر، وإننى في هذه المرة خدعته، وقابلت حبه بالذبح. قال إننى قتلته مرارا، وإنه لم يعد سوى شبح. قلت: لم نذهب لرأس البر إلا منذ عامين يا صقر. كذبنى. قال إن ذكرى اللقاء في قلبه جرح لا يندمل.

أول مرة رأيته في الجامعة الأمريكية، في حفلة لأوركسترا برلين. هو الذى كلمنى أولا. طلب منى «البامفليت» قال إنه يشعر بموسيقى

هايدن تتفجر كعروق من ذهب خالص، وإنه لا يحب الموسيقى الألمانية الحديثة لأنها موسيقى شكلية، فاقدة الروح. وسألنى عما إذا كنت أوافقه. قلت إننى لست مستمعة جيدة، وإننى أحب الموسيقى التى ترتاح لها أذنى.

قال بتهكم:

- موسيقى النوم.

لم أفهم ماذا يقصد.. التفتُ إليه. قلت:

- مش فاهمة.

كأنه فوجئ بسؤالى. اضطرب وجهه. صمت برهة.

قال:

- الموسيقى الهادئة.

كان وجهه حزيناً. كان كالولد الذى كبر فجأة دون أن يدرى. الذى يرى صقر أول مرة يخاف أن يلمسه. إن جسمه فيه شىء خطر. شىء مغناطيسى. شىء جعلنى أستلقى فوق صدره. أسمع ضربات قلبه، وتنفسه. كان جسمى يذوب بين يديه. وأتركه يفعل ما يشاء دون أن أدرى. كأننى دخلت إلى عالم آخر، تحكمه قوانين سرية لا يعرفها سواه.

سألنى عن اسمى.

قلت: ناهد.

قال لى بعد ذلك بعدة أشهر إن اسمى بالمقلوب هو «دهان» وإن فى هذا تلخيصا بديعا لى وللطبقة التى أنتمى إليها. لمحته فى اللحظات التى يرتفع فيها اللحن إلى الذروة ينقبض وجهه وترتعش يداه. لم أره يصفق مرة واحدة. حتى ظننت أن العزف لا يعجبه.. فى فترة الاستراحة خرج

ليدخن. شعرت بالارتياح. كما لو كان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدرى. وبالرغم من ذلك شعرت بالفراغ. كانت أول خبراتى عنه أن حضوره حضور قوى مقلق، وأنه يترك فراغا لا يمتلئ. إنه يشيع الاضطرابات أينما حل. بقصد أو بدون قصد. عاد قبل انتهاء الاستراحة. وقف أمامى غاضبا ومشتعلا قال: ألم نلتقِ من قبل؟ قلت: لا. قال: أنت كذابة. قلت: أنت مجرم. حملت حقيبتى وجريت بين المقاعد. فيما كان رواد الحفل ينظرون إلىّ فى ذهول. كنت خائفة من أن يتعقبنى. خرجت إلى الشوارع. جريت فى شوارع جانبية. نظرت خلفى. تنفست. أغلقت باب حجرتى خلفى. ونمت مريضة. كان العرق يسيل من جسمى بغزارة، وكان الليل يتكاثف. طبقات فوق طبقات، وكان النوم بركة أسقط فيها بكل جسمى. أنام نوما طويلا صامتا ومغلقا، نوم أبيض كفقدان الذاكرة. كأن كل الصور والهواجس والأحلام قد انمحت. شعرت كأننى لن أخرج من هذا النوم أبدا، كنت مسلوبة ومشلولة القدرة، وفى لحظات اليقظة الفجائية. كنت ألمح عينيه بحرين متلاطمين أسودين. عينان مصوبتان إلى صدرى. عينان تغرقانى، تحيطان بى. كنت أصرخ وأصرخ ولا يسمعنى أحد، فى ليل طويل، حالك، وكان جسمى غائرا فى الفراش، مهدودا ومستسلما فى ضعف لذيذ. كان صقر قد اقتحمنى. كان كسر الزجاج، ودخل بين الأنقاض طويلا.. عاليا، ومشعر الصدر. كنت سقطت فى وحله، وكنت هشة وفارغة. حاولت أن أذكر، هل رأيته من قبل؟ هل رآنى. قال: إنه كان يحمل الملح فوق كتفه، وإننى تقدمت وذبحته وإن رأسه سقطت وعينيه تجمدتا كعينى سمكة فى الثلج. هل قتلت صقر فى أى عصر آخر. من قتل صقر؟... حملونى إلى طبيب أوصى بالراحة وتغيير الجو. كانت رائحته، رائحة الذكر، عالقة

فى أنفى، وكنت أراه فى الحلم يرفع يدا بأصابع خمسة، أصابع كاملة الاستدارة، تهبط اليد من العلو إلى نهدىَّ العاريين، تقبض عليهما. حتى تصفيان كل ما بهما، وكنت أسأله ماذا تفعل يا صقر، يقول أحبك. أوقف سامى السيارة أمام محل مرطبات. قال إنه سيشترى علبتى عصير ويعود. نظرت فى المرآة، رأيت وجهى، صار وجه امرأة. وجه امرأة تقلبت فى نار الرجال كان صقر مجموعة رجال وأطفال معا. كان يتجسد كل يوم فى صورة مختلفة، حتى أننى لم أكن أعرف كيف أعامله وكيف أرضيه. والغريب أننى كنت حريصة على صقر، رغم أننى لم أحبه فى أى يوم، ولا فكرت فيه ضمن مستقبلى. كان خليطاً عجيباً من السوقية الرخيصة. والنبل الأرستقراطى. وكان يحب أن ينام بين نهدىّ. وكان يقول دعينى أشرب من النهر الجارى بينهما. كنت أتركه يفعل وكنت أضمه وأضمه. كان يهبط علىّ كالليل فلا أرى غير التماع عينيه. وفى الجامعة كان يحرص أن يجعلنى أرى علامات أظافرى فى جسده. ويهددنى بأن يريها للزملاء. قلت: افعل ما شئت. جرى ورائى فى الردهة المظلمة بالكلية. رفع ردائى. قال فخذاك يضيئان فى الظلام.

وقفت وسألته:

- ماذا تريد منى يا صقر؟

صمت، نظر فى عينىّ. كأنما ينوى تقرير مصيرى.

- بيننا حرب لا تنتهى.

صرخت فى وجهه الرخامى:

- حرب.. أنت مجنون.. أى حرب؟

قال بحزن وغضب:

- حرب عمرها آلاف السنين بين أولاد الفقراء وأولاد الأغنياء.
- وما دورى أنا؟
- ذبحتنى.
- أنا ذبحتك؟
- انتهكت حبى.
- أنت مريض.
- سأعلمك ما هى قدرات المريض.
- ابعد عنى.
- ألا أمتعكِ؟
- مريض.
- قولى لسيادة المستشار إنكَ أنجبتَ فتاة شهية.

قذفت الكتب فى وجهه. صرخت. تجمع الطلبة حولنا. انحنى على الأرض يجمع الكتب. قال أمام الطلبة:

- أتخافين الفئران؟
- ومن هم أقل من الفئران.

ألقى الكتب من فوق السلم، ابتسم ابتسامة خفيفة ساخرة، وشق طريقه وسط الطلبة. كانت عيونهم مصوبة نحوى. تتهمنى وتسخر منى، حتى طلبة الجماعات الدينية. قال لهم صقر عنى إننى شيوعية، وحذرهم منى. عندما قابلنى نصحنى أن أحترس. قال إنهم يحملون مطاوى قرن غزال، وإنهم أعلنوا الجهاد المقدس ضد النساء المتبرجات والشيوعية. قلت له لكننى لست شيوعية. قال لن يصدقوك. ألم توقعى على ورقة المطالبة بعودة الكافيتريا التى أغلقوها. كل من يطالب بكافيتريا فى الجامعة

شيوعي ملحد. قابلني يحيى في البوفيه. كان لا يكلمني إلا نادرا. قلت تفضل. قال:

- ابتعدى عن صقر يا ناهد. إنه مريض ولا يحتمل مأساة فوق مآسيه.

- من قال لك إنني أريد أن أرى وجهه.

قال كأنه لم يسمعني:

- هذه علاقة مريضة ومحكوم عليها بالفشل.

جلست أمامه على المنضدة. قال:

- عليك أن تسألى نفسك إلى أين سينتهى هذا كله.

قلت: انتهيت.

قال: نعم.

قذفت كوب الماء في وجهه. قلت سافل أنت وصاحبك.

جريت إلى الباب لأخرج قبل أن يفيق.

إنه مجنون كصاحبه، يمكنه أن يفعل أى شيء. كان قلبى بدأ يسقط فى منحدر سحيق.

جاء سامي بعلبتى عصير برتقال. أخذت علبة. شعرت بها رطبة بين يدى. وضعت المصاصة فى فمي. كان يتهكم كلما رآنى أتعامل مع هذه الأشياء. يقول:

- تجيدين التعامل مع مزايا الانفتاح.

وكنت أقول:

- ليس لى فى السياسة يا صقر.

حاولت الاقتراب منه لأفهم سر الخلاف بيننا. لأفهم سر التوتر الذى ساد علاقتنا. قلت. لنحدد الخلاف يا صقر.

- الخلاف.. أننا نسير فى طريقين لا يلتقيان.
- يمكن لأشياء أخرى أن تجمعنا.
- تقصدين الجنس. نعم أوافقك، بشرط أن أظل ذكرا وأنت أنثى.
- لا أفهم.
- الرجال الفقراء أمثالى، يتصورون أن بإمكانهم الانتقام بحرابهم التى بين أفخاذهم.
- سأمنعك.
- لا تستطيعين.
- لماذا؟
- أشياؤك تحت يدى.
- تبتزنى يا صقر؟
- بل أحاول أن يكون لى بعض الأسلحة.
- ألا تؤمن بالضمير؟
- أى ضمير؟
- الله؟
- إننا نتعامل مع إلهين مختلفين.
- الله حقيقة واحدة مطلقة.
- لكن نظرة الناس إليه ليست واحدة.
- ماذا تريد؟
- لا أعرف.

- تحبنى؟
- أكرهك وأحبك.
- مشكلتى فى نظرك أننى غنية.
- مشكلتك أننى صقر.
- بابا تعب فى حياته.
- ....
- كان يحكم ببراءة تاجر المخدرات لأسباب فى الشكل ويخرج يتشعلق فى أتوبيس، بينما يخرج تاجر المخدرات فى مرسيدس أحدث طراز.
- ....
- بابا باع ميراثه فى الشرقية وافتتح تجارة باسم أمى.
- ....
- لسنا كما تتصور يا صقر.
- أمى تخدم فى المنازل. .تصنع الكعك والحلوى مقابل قروش، كان أبى مجنونا، يسرح ببضاعته على ذراعيه فى مواسم الصيف.
- أين الخلل؟

فتحت الباب. رأيته واقفا. طويلا ووحيدا. كنت برداء البيت. قلت يا مجنون. كان كل من بالبيت قد خرج. قلت سيرجعون بعد ساعة. قال دعينى أشرب من النهر. غرست أصابعى فى شعره. قال خذينى. ضممته إلى صدرى. شعرت بالليل يهبط ضاغطا. تنهد.. قال: آه كان عندما يبلغ به الألم منتهاه. يصرخ: آه. كذلك عندما يبلغ ذروة الوجد. كنت أحمله. أشم جسده المالح. جسده الغاضب. طعم عرقه وكان قلبى ينخلع، فى اللحظة

المسروقة التى نلتقى فيها. لم يكن صقر أول تجربة. وإن كان هو الأول بالنسبة لى. كان فريدا كالعملة النادرة. أجبرنى على تجاوز سنى وخبراتى. كنت أستسلم له. سألنى: من قبَّلك أول مرة؟

- ابن عمى.
- كان يحبك؟
- كان يعبد جسمى.
- كيف؟
- كان يطلب منى أن أتعرى بينما يركع ويقبلنى.
- وأنت؟
- كره الحياة هنا وهاجر إلى أمريكا.
- أحببتِه؟
- لا أعرف.
- ما اسمه؟
- أكثم.
- اسم شيك.
- جائز.
- هل عمل فى مصر؟
- أبدا. كان «طالب فاشل» فى الجامعة الأمريكية.
- كنا نأخذ فطيرا فى الابتدائية ويقولون إنه معونة من أمريكا.
- بابا قال إن جمال خرب البلد وقعد على تلها.
- هل لها تل؟
- لا أعرف جغرافيا.

- تعرفين الصلاة لجسمك فقط؟
- أنت مجنون يا صقر.

ألقيت علبة العصير الفارغة من النافذة. استسلمت لنسيم الطريق الزراعي. كان سامي يضع المصاصة في فمه ويقود، ويرقص على أغنية ديانا روس. طلبت منه أن يلقي المصاصة حتى لا يعمل كارثة. قال إنه مستريح هكذا. كان صقر يكره المصاصة، ويقول إن لها إيحاء جنسياً فاضحاً، ويتهمني بالشذوذ. كنت أعرف أنه يحب يحيى، ويأخذ كلامه كمسلمات. قلت له إن يحيى سيفسد رأسه بكلام فارغ. قال إن يحيى إنسان. قلت: مغرور جدا. قال: بالنسبة لأمثالك فقط، إن غروره سلاح، إنني أحب يحيى وأحسده.. ليتني كنت مثله. سألته: وماذا يمنعك. أمسك ذراعي بقبضته قال: أنتِ. وضحك كما لو كان يبكي. ضحكاً عالياً فارغاً. قلت: الغيرة ستأكل قلبك.. قال: ليس قبل أن أغرس الحربة في طينك، وأعلمك ما هي المصاصة الحقيقية. وفي مرة. نادى يحيى ليشرب الشاي معنا. قال: نسكن في حجرة واحدة ولا نلتقي إلا نادرا. جاء حاملا مجموعة من الكتب والمجلات. قال إنه مشغول بإعداد عدد خاص عن جنوب أفريقيا، وإنه يبحث عن صورة مناسبة للزعيم الأفريقي «نيلسون مانديلا».

قال صقر:

- تحت يدي صور لنجوى فؤاد.

قال يحيى:

- وقتها لم يحن بعد.
- وإذا كانت مع كيسنجر؟
- الأمر يتوقف على المكان والتوقيت.

قلت: إننى سأنصرف.

قال صقر: ليس قبل أن تعرفى حكاية المصاصة من يحيي.

قال يحيى: أية مصاصة؟

قال صقر: أنت تعرف.

نظر إلىَّ يحيى ببرود. ووضع كتبه فوق المنضدة.

قال:

- لا أريد أن أقول كلاماً فِجاً يا صقر.. عندما يتعلق الأمر بالناس والوطن فالمسألة لا تحتمل الضحُك.

- لا أقصد إثارة كل هذه المشاكل...

- ماذا تريد أن أقول؟

- ما تراه صحيحا بشأن التقليد الوافد.. والذى يتلخص فى امتصاص المشروبات الغازية عبر مصاصة..

قلت: صقر يريد أن يضحك.

قال يحيى: اسمع يا صقر، لا أريد أن أقول إن المثقفين هم أقرب الناس للخيانة لقدرتهم العظيمة على التبرير، أريد أن أقول إنه فى الوقت الذى تبيع فيه مصر استقلالها الوطنى لأجل: أكوام من السوتيانات والألبسة وعلب العصير وأفلام الجنس والفيديوهات والجوارب الحريمى إلى آخر القائمة، أقول فى نفس الوقت تبحث عن المثقفين.. لا تجد أحدا. لا تجد غير الغرقى فى هموم الذات، والطموحات الصغيرة، وعبادة السلع والجنس. وتجد الفن عنفاً وعرياً أو طقوساً سحرية، لا تعرف لمن؟

انهب إلى بورسعيد.. الناس هناك يسكنون فى أعشاش كالمقابر دون ماء ولا هواء ولا مجارى.. ستجد فى نفس الوقت. الفيديو والتليفزيون

الملون والأناناس. وأهم من ذلك ستجد الناس قد تحولوا إلى مرتشين وقوادين.

وضع صقر يده خلف رأسه. أغمض عينيه، كان مضطرباً وقلقاً. قال يحيى:

- أنا مضطر أمشي.

مد يده نحو صقر ليصافحه، مد صقر يده بتثاقل، قال فى صوت خفيض:

- ومع ذلك.. أحبك.

وضربه في صدره ضربة خفيفة بقبضته. قال:

- شكرا على الخطبة العصماء..

بعدها قلت لصقر، إن صاحبه سيدخل السجن بسبب أفكاره. قال:

- تعددت الأسباب والسجن واحد.
- كوكتيل جنون يا صقر.
- أريد أن أصلى.
- كافر.
- أعطنى فرصة لأبرهن عن إيمانى العميق.

سألت نفسي. هل أحب صقر؟ لا. لا أحب صقر ولا أكرهه. إذن لماذا علاقتى به. لماذا دورانى المحموم حوله. كأنه إله وثنى أعبده. إله دون أرجل وأصابع وشعر. إن جسمي يتهاوى أمامه، يتهاوى وينفتح، دون خجل بل وبرغبة معلنة. أجدنى أكشف جسمي. تحت عينيه الصقريتين تحت تنفسه الحيواني ورائحته الطاغية. كان يصعد السلم، يمشي فى الردهة خطواته دَهسٌ، كأنه يدوس كائنات خفية يسحقها. وكان قلبى

يخفق، يكاد ينخلع، وجسمى ينفك بين ذراعيه، كان يضىء النور، يصر على الضوء، وكنت أغمض عينى بينما يتفحصنى. وكنت تلويت تحت ليله. انقلبت معدتى فى فمى. تقيأت على صدره، سائلاً أصفر عنيفاً راح يمسح القىء فى صدره، فى شعر صدره النامى، وكان يضحك ضحكة جوفاء. قلت: يا مجنون كان يأخذنى من يدى إلى دهاليز سحرية، وكنت أخاف وأرتعد، أرى أصابعه الحجرية صاعدة هابطة فى الظلام، تنغرس فى اللحم، يسيل عرقه مالحاً زنخاً، كان غاب كثيراً، وكنت فزعت لغيابه. كانت الطرقات كلها خالية منه، وكنت مجنونة لا أنام الليل، كان غاب عنى. سألت عنه أصدقاءه. لا أحد يعرف عنه شيئا. قال أحدهم: لا يعرف أحد أين اختبأ ذئب البوادى. وكنت أفتش عنه وسط البلد، فى ريش والأتيليه، فى الشوارع الجانبية. والمقاهى القديمة. أين راح. ذهبت إلى باب البحر، أدخل شوارع أخرج من شوارع. أسأل بائعات الفجل والجرجير صديقاته. لا أحد يعرف عنه شيئا، قلت إن لم أره سأموت. كنت أموت، سألت يحيى، قال لى أن أبتعد بدلا من أن يصفعنى. رجوته أن يخبرنى أين صقر؟ قلت: مسألة حياة أو موت. ابتسم ساخراً. قال: يرقد فى حجرته لا يبرحها وأعطانى العنوان. كان الهواء الخماسينى ساخناً محملاً بالتراب. شعرت بجو القاهرة ضاغطاً والإسفلت يتوهج. كان العرق يسيل لزجاً على جسمى، وكان ذا رائحة كريهة. قال صقر إنه يعشق رائحتى، وإنه يشمها من بعيد فيهتاج، حملت الحقيبة والكتب وأوقفت «تاكسى» أمام الجامعة. وجدتنى أقول «دار السلام» بَحْلَقَ فى السائق برهة، واشترط «اثنين جنيه» وافقت. أعاد بحلقته فىّ. دخل الهواء من النافذة حارا. فتحت زرار البلوزة العلوى سألت نفسى: إلى

أين؟ ماذا فعل بى صقر عبد الواحد. من أنا؟ وما جدوى ما أفعله.. أية خيوط ربطت مصيرى بمصيره. كان يأخذنى من يدى إلى الأحياء المتداعية فى السيدة، والقلعة، وباب الشعرية، وباب البحر ويصر على تناول الشاى فى أحد المقاهى الرثة، وكان يدعو الآخرين للجلوس معنا، ويقدمنى على أننى أخته. كان العالم يدور بى، وأوشك على التقيؤ. قلت وماذا بعد؟ يقول عليك أن تسألى نفسك من سرق هؤلاء فى الحياة، ويشير إلى الأطفال العراة وهم يتبولون ويتبرزون فى وسط الشارع. يقول كانت طفولتى كطفولتهم.. ما رأيك؟ هل تقدمين على تقبيلى مرة أخرى؟ وكان يتجهم ويقطع مسافات طويلة صامتاً قاسَياً، يرقب بعينين من نار، أزقة ودروبا لا تنتهى. ترتفع فوق قمم الزبالة. كان السائق ينظر إلى مندهشاً فى المرآة. طلبت منه أن يتوقف أمام محل فاكهة. نزلت اشتريت برقوق ومشمشَ وعلبتى مانجو، فتشت عن العنوان. كان يقول إنه يسكن فى حى يسمونه الصين الشعبية، وإنه يرى أن هذه التسمية خطأ، لأن الصين الشعبية وإن كانت بحراً من البشر إلا أنها ليست بلا ماء ولا مجارى، قال إن الحكومة تعتبر هذا الحى أرضاً زراعية. رغم أنه لم ير فيه بوصة واحدة خضراء. نزلت فى شارع ترابى منحدر وضيق. كان التراب يصعد إلى صدرى. سألت صبياً عن العنوان. تركنى وجرى، تقدمت إلى الأمام. أنظر إلى أرقام البيوت الصامتة كالمقابر، بينما أسراب البط والفراخ تجرى أمامى فى أرض قذرة. فكرت أن أرجع. نظرت خلفى. وجدتنى قطعت شوطا طويلا. توقفت أمام الرقم ١٧. كان الباب الحديدى مغلقاً. سألتنى امرأة بدينة. عايزة حد هنا؟ قلت: صقر عبد الواحد. فتحت البوابة الحديدية. سألتنى: قريبته؟ قلت: بنت عمه. قالت: إنه مريض لا

يخفق، يكاد ينخلع، وجسمي ينفك بين ذراعيه، كان يضيء النور، يصر على الضوء، وكنت أغمض عيني بينما يتفحصني. وكنت تلويت تحت ليله. انقلبت معدتي في فمي. تقيأت على صدره، سائلاً أصفر عنيفاً راح يمسح القيء في صدره، في شعر صدره النامي، وكان يضحك ضحكة جوفاء. قلت: يا مجنون كان يأخذني من يدى إلى دهاليز سحرية، وكنت أخاف وأرتعد، أرى أصابعه الحجرية صاعدة هابطة في الظلام، تنغرس في اللحم، يسيل عرقه مالحاً زنخاً، كان غاب كثيراً، وكنت فزعت لغيابه. كانت الطرقات كلها خالية منه، وكنت مجنونة لا أنام الليل، كان غاب عني. سألت عنه أصدقاءه. لا أحد يعرف عنه شيئا. قال أحدهم: لا يعرف أحد أين اختبأ ذئب البوادى. وكنت أفتش عنه وسط البلد، في ريش والأتيليه، في الشوارع الجانبية. والمقاهى القديمة. أين راح. ذهبت إلى باب البحر، أدخل شوارع أخرج من شوارع. أسأل بائعات الفجل والجرجير صديقاته. لا أحد يعرف عنه شيئا، قلت إن لم أره سأموت. كنت أموت، سألت يحيى، قال لى أن أبتعد بدلا من أن يصفعنى. رجوته أن يخبرني أين صقر؟ قلت: مسألة حياة أو موت. ابتسم ساخراً. قال: يرقد في حجرته لا يبرحها وأعطاني العنوان. كان الهواء الخماسيني ساخناً محملاً بالتراب. شعرت بجو القاهرة ضاغطاً والإسفلت يتوهج. كان العرق يسيل لزجاً على جسمي، وكان ذا رائحة كريهة. قال صقر إنه يعشق رائحتي، وإنه يشمها من بعيد فيهتاج، حملت الحقيبة والكتب وأوقفت «تاكسى» أمام الجامعة. وجدتني أقول «دار السلام» بَحَلْقَ فى السائق برهة، واشترط «اثنين جنيه» وافقت. أعاد بحلقته فىّ. دخل الهواء من النافذة حارا. فتحت زرار البلوزة العلوى سألت نفسى: إلى

أين؟ ماذا فعل بى صقر عبد الواحد. من أنا؟ وما جدوى ما أفعله.. أية خيوط ربطت مصيرى بمصيره. كان يأخذنى من يدى إلى الأحياء المتداعية فى السيدة، والقلعة، وباب الشعرية، وباب البحر ويصر على تناول الشاى فى أحد المقاهى الرثة، وكان يدعو الآخرين للجلوس معنا، ويقدمنى على أننى أخته. كان العالم يدور بى، وأوشك على التقيؤ. قلت وماذا بعد؟ يقول عليك أن تسألى نفسك من سرق هؤلاء فى الحياة، ويشير إلى الأطفال العراة وهم يتبولون ويتبرزون فى وسط الشارع. يقول كانت طفولتى كطفولتهم.. ما رأيك؟ هلِ تقدمين على تقبيلى مرة أخرى؟ وكان يتجهم ويقطع مسافات طويلة صامتاً قاسياً، يرقب بعينين من نار، أزقة ودروبا لا تنتهى. ترتفع فوق قمم الزبالة. كان السائق ينظر إلى مندهشاً فى المرآة. طلبت منه أن يتوقف أمام محل فاكهة. نزلت اشتريت برقوق ومشمشَ وعلبتى مانجو، فتشت عن العنوان. كان يقول إنه يسكن فى حى يسمونه الصين الشعبية، وإنه يرى أن هذه التسمية خطأ، لأن الصين الشعبية وإن كانت بحراً من البشر إلا أنها ليست بلا ماء ولا مجارى، قال إن الحكومة تعتبر هذا الحى أرضاً زراعية. رغم أنه لم ير فيه بوصة واحدة خضراء. نزلت فى شارع ترابى منحدر وضيق. كان التراب يصعد إلى صدرى. سألت صبياً عن العنوان. تركنى وجرى، تقدمت إلى الأمام. أنظر إلى أرقام البيوت الصامتة كالمقابر، بينما أسراب البط والفراخ تجرى أمامي فى أرضٍ قذرة. فكرت أن أرجع. نظرت خلفى. وجدتنى قطعت شوطا طويلا. توقفت أمام الرقم ١٧. كان الباب الحديدى مغلقاً. سألتنى امرأة بدينة. عايزة حد هنا؟ قلت: صقر عبد الواحد. فتحت البوابة الحديدية. سألتنى: قريبته؟ قلت: بنت عمه. قالت: إنه مريض لا

يخرج. حملت عنى حقيبة الفاكهة وأعطتها لصبى. قالت وصلها للأستاذ صقر. كان السلم ضيقاً حلزونياً. وكانت رائحة الطبخ تتصاعد مختلطة برائحة المجارى، وكان الهواء يضغط صدرى. شعرت بالسلالم لا تنتهى، والطفل أمامى يصعد قفزاً، كانت نساء وأطفال يطلون علىَّ من الأبواب المفتوحة ولا يتكلمون. صعد الطفل فوق السطح. كانت حجرة منفردة مغلقة، تضرب الشمس حيطانها. ترك الكيس. قال: هى دى الأودة. نزل سريعا. دققتُ الباب. انفتح من تلقاء نفسه. انفتح ورأيته فى عرينه، صقر عبد الواحد ممددًا فى سريره، عاريًاً يتصبب عرقاً. كانت رأسه ملفوفة فى فوطة، وفى وسط الحجرة كومة من الزبالة والكتب وزجاجات البراندى وعلى الجدار قرأت خط صقر «هذا هو عصر الصدى فاعبدوا الأزيار» وعلامة استفهام كبيرة. اقتربت منه. جلست على حافة السرير. وضعت يدى فوق صدره العارى. كان ضعيفاً واهناً وأصفر.. قلت: صقر. قال دون أن يفتح عينيه.. هل رأيتنى فى حلمك.. اسمى صقر.. صقر عبد الواحد لست من هنا. جئت فى الحلم.. كل مرة، وراء الأعشاش، خلف البحر وكنت أقف تحت الملح.. جبلاً، وأبحث. هل رأيتنى؟ صقر عبد.... وجريت، أمسك الريح.. ذبحت، سقطت رأسى.. عينان فى الثلج. كان محموماً، وكان جسمه واهناً مرتخياً، رفعت ذراعه. صرخت: صقر. قال: اسمى صقر.. أمى من القرى.. الكوشة كانت تسقط من العربة طوال الطريق.. يحيى.. يحيى.. رجل، يحيى رجل.. ضربتُ قبضتى فى صدره.. سألته أين أنت؟ سألنى.. هل رأيت رجلاً اسمه صقر فى حلمك؟ صرخت لا.. لم أره.. دفعت الباب بقدمى.. هربت من قبره.. كان صقر مات.. كان انتهى فوق سريره.. محموماً أصفر يهذى.. صقر الذى أعرفه

يدهس، ويدوس ويشعل الحرائق، يثير الفتن والاضطرابات أينما ارتحل، ويعتصر نهود البنات بأصابعه الصخرية لآخر قطرة. سألنى: انتهى؟ قلت: نعم من قبل أن نبدأ. قال: يولد الإنسان ومعه أسباب موته. قلت: انتهى. كنا آخر مرة فى «ريش»، يكاد يقبل قدمى والمصاصة انتى يكرهها فى فمى.. لم يعد يكرهها. فقد كل أسلحته. .كل سحره. سألنى: انتهى؟ قلت: انتهى. جاءنى عريس معيد ويعمل فى شركة سياحة.. رجل أعمال صغير. قال: أريدك. قلت: انتهى. كان يبكى ويشعل السجائر. قال: جئت لنُصفى خلافاتنا. قال: أحبك يا ناهد. قلت: انتهى. كان صقر انتهى.. وكنت تحررت منه.. خرجت من دواماته. كأننى كنت منومة كل هذا الوقت. قلت لسامى. سنرجع رأس البر أوقف العربة. نظر إلى مندهشا. قلت: كنت منومة. قال: وأفقتِ؟ قلت: صقر انتهى. لم يعد منه شىء. فقط أربع عيون صقرية.. متحفزة فى بيته المظلم.. بيت عنكبوت.. ماذا أريد من تحية.. لا شىء.. سنرجع إلى رأس البر. قلت من يمنحنى صقر الذى أعرفه.. صقر مات بالحمى، فى مقبرة فوق السطح. كان يهذى بين يدى.. وسط الزبالة والكتب وزجاجات البراندى الفارغة.. مات وانتهى منذ زمان بعيد.. قلت صقر انتهى بالنسبة لى. فتحت صدرى لهواء الطريق الزراعى. تنفست.

موت صقر

٨، ٩ أغسطس ١٩٨٤

قال: كأن كل الورود سامة، وكل الحب مستحيل.

٨ أغسطس: ليلاً

(١)

قالت: أمك خرجت. انحنى فوق الطبق يتأمل أقراص الطعمية ولا يأكل. سألها: نمت كم ساعة؟ قالت كثير. كان العرق يسيل على جبهته. أشعل سيجارة. استند إلى الحائط. حملت تحية الطبق. أشعلت الموقد على الشاى. قال: نوم النهار متعب. قالت: اخرج امشى شوية.. يحيى سألنى عليك. قال: جسمى همدان. قدمت الشاى فوق صينية وضعتها على الأرض. قالت: جدك نام. قال: النوم عبادة. قال: لا أذكر متى كان جدك مستيقظاً. قالت مالك يا صقر؟ أمسك جريدة، راح يتصفحها بلا اهتمام. قال: حبوب الشباب لم تعد مشكلة. أشار إلى الإعلان. قالت: مالك يا صقر؟ قال: رأيت كابوساً يختلط بضجيج الشارع، وكنت لا أدرى أيهما الكابوس الحقيقى. قالت: امشى شوية على الكورنيش. قال: رائحة المجارى. قالت: دائماً تغلق السكك المفتوحة. قال: لم تكن ثمة سكك مفتوحة. كان الجو ضاغطاً ثقيلاً والغبار يثور داخل الشقة كلما مرت

سيارة فى الشارع. قال: فى بيتنا أشعر بالغبار والقذارة فى جسمى مهما استحممت. قالت: خد لك دش. قال: لقد صارت القذارة تحت الجلد.. لا ينفع معها إلا السلخ. جلست تحية أمامه بكت، تركت دموعها تنزل حرة. كانت الدموع تصعد من صدرها إلى عينيها، وكانت وضعت يديها فى حجرها. قالت: انت عيان يا صقر. قال: ما فيش حاجة يا عبيطة. بس عايز فنجان قهوة. ابتسمت. مسحت دموعها.

أشعلت الموقد. أشعل سيجارة. قالت: خِف شوية من السجاير يا صقر.. قال: حاضر أى أوامر أخرى. قالت: تنام بالليل وتصحى بالنهار زى خلق الله. قال: علم. ضحك. نظر إليها فجأة. قال: أمك فين؟ قالت مندهشة. مش قلت لك خرجت. قال: نسيت. قدمت له فنجان القهوة. قالت: ما تسهرش كتير. قال: حاضر. قالت: عايز حاجة. قال: لا. قالت: تصبح على خير. قال: حاضر. لوت شفتها السفلى وهى تنظر إليه. ضحكت.

(٢)

دخل حجرته. أضاء النور. أغلق الباب خلفه. كانت الحيطان تبخ مهداً. شعر بجسمه مهدوداً. استلقى فوق السرير. أغمض عينيه.. سمع تنفسه يتردد داخل صدره. كانت القهوة فوق المكتب. استند إلى الجدار. مد يده. أمسك الفنجان. ارتشف رشفة كانت ساخنة. عاد فاستلقى. كانت الحيطان ترتفع حوله، صماء، خرساء، همس لنفسه: انتهى. وحده فى الحجرة المطلة على الميدان والبيوت الواجهات والضوء والظل والرعب.. الرعب الكامن فى الأشياء. الكامن فى طين الله المتفسخ فى الطرقات. كان جاء فى الظهيرة. بالقناع والورود. جاء حاملا الباقة. على شفتيه ابتسامة واثقة، وكنتَ وحدكَ أمامه. من خلفِكَ الضجيجُ والغبارُ، ويده ترتفع بالزهور.. زهوركَ. صرختَ فى الصحراء.. صحرائكَ. لا أحد. وكان يرتفع من الطين، من الورش العفنة والشوارع والدهاليز، يرتفع بالورود، من دار السلام والجِرْبى والجامعة ورأس البر، يرتفع من بطن ناهد الإسفنجية، يرتفع من أفخاذ النساء الممنوعة، خلف الستائر والعطر والسيارات.. ألفيلات المصايف المواخير، وكان يختلط بصخب الشارع، بصوت أمك المشروخ، بسعال جدك. كنت وحدك أمام ورودك. ولا أحد، حتى تحية، راحت فى الشوارع، فى الحلوى والدكاكين.

....

شرب القهوة، أمسك ورقة وقلما. كتب إلى أى أحد. ربما كتب إلى صقر ذاته.. أن الحب مستحيل.. وأنه متروك للأيدى الخشبية، متروك لقناع الخزف والورود السامة. كتب انتهى، واستلقى مهدوداً.

....

....

وكان عرقك مالح الطعم يسيل، وكنت ناديت يحيى، ليشق الحائط بذراعه، ويأتى إليك، وكان صوتك لا يخرج.. انقطعت حبال الصوت. بقيت مفرداً. تجاه سحنته الطالعة من ظلام الشوارع الجانبية، الطالعة من أكياس الملح، وعينى السمكة ودمك المسفوح. أمام وجهه الخزفى وعينيه الزجاجيتين، وكان رفع الورود السامة كلها، وكان انقضّ عليك أنت، صقر عبد الواحد، لآخر مرة، فى حجرتك المطلة على الميدان.

٩ أغسطس: صباحاً

كانت سألَتْ: صقر فين يا ولاد؟ قالت تحية: نايم. قالت: لسه نايم. قامت من مكانها، وتحية تنتظِر خلفها، فتحت باب الحجرة، صرخت صقر، وصرخت، وتحية فى الخلف انخلع قلبها قبل أن تعرف أى شىء. دخلت الحجرة، كان أزرق وصلباً ورغوة تسيل من فمه، وفوق صدره باقة ورود، انطبقت عليها يداه، وفوق المخدة أوراق متناثرة...

***

لا أحد يعرف مصير باقة الورود التى وجدت فى يد صقر عبد الواحد، والمرجح أنها كُنِسَتْ وأُلقيَتْ فى الزبالة. لم يُثِرْ أى أحد شكاً حول طبيعة هذه الزهور، اللهم إلا صديقه يحيى خلف الذى أكد أول الأمر أن هذه الورود سامة، وأنها دست لصقر، ويبدو أنه تنازل عن هذا الاعتقاد فيما بعد، وقد بحثت عنه تحية ليرتب معها أوراق صقر كما وعد. لم تجده. وعلمت بعد ذلك أنه قد حصل على عقد عمل فى قطر وسافر، فحفظت أوراق صقر فى حقيبة وأغلقتها ودستها تحت السرير.

أحمد زغلول الشيطى

٢١ / ٧ / ١٩٨٦

الفهرس

- ما وراء الطبعة الثالثة ٧
- موت صقر ٩ أغسطس ١٩٨٤ ١٥
- يحيى خلف ١٠ أغسطس ١٩٨٤ ٢١
- صقر عبد الواحد ٥ أغسطس ١٩٨٤ ٤٧
- تحية عبد الواحد ١١ أغسطس ١٩٨٤ ٥٩
- ناهد بدر ١٨ أغسطس ١٩٨٤ ٧١
- موت صقر ٨، ٩ أغسطس ١٩٨٤ ٩١